الفوائد والعبر من قصص الأنبياء

تأليف
فؤاد بن عبد العزيز الشلهوب

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين . ثم أما بعد :

فإن الأنبياء أكمل الناس عقولاً ، وأحسنهم أخلاقاً ، وأشدهم صبراً عند الأبيتلاء ، اختارهم الله ليكونوا سفرائه إلى أقوامهم ، ليبشروهم برحمة الله وفضله إن هم أطاعوه ، وينذرونهم غضب والله ومقته إن هم عصوه وخالفوا أمره .

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز طائفة من الرسل والأنبياء ، وعددهم خمسة وعشرون نبياً ، منهم ثمانية عشر نبياً في أربع آيات متتاليات من سورة الأنعام وهي قوله تعالى: **{وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين .وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين. وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين}** [1] والسبعة الآخرون هم آدم وإدريس وهود وصالح وشعيب وذو الكفل ومحمد عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.اهـ . ولايعني ذكر هؤلاء الأنبياء في القرآن أنهم هم الذين نُبئوا أو أُرسل إليهم فقط من دون الناس . لا. ليس هذا المراد ، بل إن هناك كثير من الأنبياء والرسل لانعلمهم ولم يرد ذكرهم في القرآن قال تعالى: **{ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك}** [2]وتلك لحكمةٍ الله أعلم بها . وينصر ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في حديث أبي سعيد الخدري ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إني خاتم ألف نبي وأكثر مابعث نبيٌ يتبع إلا وقد حذر أمته الدجال...الحديث)** [3] وفي حديث أبي ذر

---

[1] . الأنعام (83-86)

[2] . النساء 164

[3] . رواه أحمد في مسنده في باقي مسند المكثرين (11343 ترقيم إحياء التراث) ، والحديث رواه البخاري في كتاب الحج ،ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، والترمذي في الفتن ولكنهم لم يذكر قوله صلى الله عليه وسلم إني خاتم ألف نبي. الحديث.

قال: قلت يارسول الله كم المرسلون ؟ قال: ثلاث مائة وبضعة عشر جماً غفيراً ،وقال مرة خمسة عشر ..الحديث [1] .
قال القاسمي : ثم اعلم أن قصص القرآن الكريم لا يراد بها سرد تاريخ الأمم أو الأشخاص ، وإنما هي عبرة للناس، كما قال تعالى في سورة هود ، بعدما ذكر موجزاً من سيرة الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم : **{ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ...}** إلخ ... وقال : وفي تلك القصص فوائد عظيمة، وأفضل الفوائد وأهم العبر فيها التنبيه على سنن الله تعالى في الاجتماع البشري، وتأثير أعمال الخير والشر في الحياة الإنسانية... إلخ [2].

الفوائد والعبر من قصص الأنبياء

القسم الأول: دعوة الأنبياء والرسل وحالهم مع أقوامهم .

1- التوحيد هو أول شيء بدء به الرسل .

أول أمر بدء به الرسل في دعوتهم لأقوامهم، أنهم أمروهم بتوحيد ربهم الذي خلقهم ورزقهم وأنعم عليهم، وبينوا لهم أن الله هو المستحق وحده للعبادة، فمن أخلص له في توحيده كان من الفائزين بجنته، ومن أشرك به خسر الدنيا والآخرة ، قال

[1] . رواه الإمام أحمد في مسند الأنصار برقم 21036
[2] . تفسير القاسمي (1/74)

تعـالى: { يـنزل الملائكة بـالروح من أمـره على من يشـاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فـاتقون } [1] . فهـذا عيسى عليه السلام يحكي الله جل في علاه عنه دعوته لقومه فقـال: **{ ... وقال المسيح يـابني إسـرائيل اعبـدوا الله ربي وربكم إنه من يشـرك بالله فقد حـرم الله عليه الجنة ومـأواه النار وما للظـالمين من أنصـار }** [2] . وهـذا إبـراهيم يحـذر أبـاه وقومه من بعـده :**{ وإذ قـال إبـراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصـناما آلهة إني أراك وقومك في ضـلال مـبين }** [3] .
وهذا نوح عليه السلام يقـول: {... يـاقوم اعبـدوا الله ما لكم من إله غـيره إني أخـاف عليكم عـذاب يـوم عظيم } [4]. وهـود [5]، وصالح [6]، وشعيب-عليهم السلام- [7] ، كلهم قال لقومه : اعبـدوا الله ما لكم من إله غيره . ومن جاء بعـدهم ومن كـان قبلهم من الأنبياء والرسل، بدءوا بدعوة التوحيد قبل كل شيء، لأنه إذا صح التوحيد ونُقي من أدران الشرك، وسلمت العقيـدة من الضـلالات الباطلة، كان ذلك إيذاناً بغفران الذنوب وقبول العمل .

والدعاة إلى الله لهم في رسل الله وأنبيائه سلف -وهم خير سلف-، فحريٌ بهم أن يعتنوا بهـذا الأصل العظيم، وأن يصـححوا عقائد النـاس بالحكمة والموعظة الحسـنة، وأن لا يسـكتوا عن المخالفات التي تقـدح في التوحيد بـدعوى تـأليفهم وتجميع أكـبر قدر منهم، فإنهم وإن حصل لهم ما يريدون من التجمع الكبـير إلا أنهم غُثـاء كغثـاء السـيل، ليس معهم ما يحصـنهم ضد الشـبهات المضـللة والآراء الفاسـدة . وهل أُتي الإسـلام إلا من قبل أهل الكلام وأهل البدع والخرافات ؟ .

2- تقرير الأنبيـاء: أن توحيد الربوبية يسـتلزم توحيد الألوهية .

لم تنكر أمة من الأمم توحيد الربوبية، فجميعهم يؤمنون بأن الله هو الخالق الـرازق المحـيي المميت... ولكنهم مع ذلك كـانوا يُشركون معه في العبـادة أو يـدعون الأصـنام والأنـداد من دونه . والرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كـانوا يقـررن أمـراً واضحاً جلياً وهو: أن من كان خالقاً رازقاً محيياً مميتا، كـان أحق بالعبادة وأن يُخلص له فيها وأن لا يشرك به أو معه غيره . ولكن

---

1 . النحل (2)
2 . المائدة (72)
3 . االأنعام (74)
4 .الأعراف (59)
5 . الأعراف(65)
6 . الأعراف (73)
7 . الأعراف(85)

لتسلط الشيطان عليهم، ومتابعتهم للآباء والكبراء، استكبروا وأبوا أن ينقادوا للحق .

قال الله تعالى حاكياً مناظرة موسى-عليه السلام- لفرعون : **{ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ(22)قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ(23)قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ(24)قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ(25)قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ(26)قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ(27)قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ }** [1]. فانظر إلى كلام موسى –عليه السلام- حيث يقرر لفرعون وقومه أن المستحق للعبادة هو رب السموات والأرض، وربهم ورب آبائهم، ورب المشرق والمغرب.

وأمر الله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين : **{ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(84)سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(85)قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ(86)سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ(87)قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(88)سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ(89) }**[2]. وهذا تقريرٌ آخر، حيث أمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين، لمن الأرض ومن فيها، ومن رب السموات السبع ورب العرش العظيم، ومن بيده ملك كل شيء . والجواب معروفٌ لديهم، ولذا قال تعالى: { **سَيَقُولُونَ لِلَّهِ** } . ولذا كان ختم كل آية فيه توبيخ وتقريعٌ للمشركين، كيف أنكم تعلمون ذلك وتقرون به ثم تشركون به ولا تفردون له العبادة . **قال ابن كثير** في تفسير هذه الآيات: يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له...اهـ [3].

3- فائدة كون الأنبياء بشر .

كذبت الأمم السابقة وكفار مكة من هذه الأمة بما جاء به الرسل، واستندوا في تكذيبهم على أن الذين أرسل إليهم بشر . فقال قوم نوح لنوح: **{ ... مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا**

---

[1] . الشعراء(22-28)

[2] . المؤمنون (84-89)

[3] . تفسير القرآن العظيم . (المؤمنون 84)

بِهَـذَا فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ(24) } [1]. وقـال قـوم موسى : **{ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ(47) }**[2] .

ومثل هذا في القرآن كثير، حيث رد الله عليهم وبين الحكمة من جعل الرسل من البشر، وأن هـذا من لطفـه بـالخلق ورحمته بهم، فقـال-تعـالى-: **{ قُـلْ لَـوْ كَـانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَـةٌ يَمْشُـونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّـمَاءِ مَلَكًا رَسُـولًا(95) }**[3] . وقـال تعـالى: **{ لَقَـدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(164) }** [4] .

قال ابن كثير عند قوله تعالى -**{قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ... الآية }**- **:** ثم قال تعـالى منبهـاً على لطفه ورحمته بعبـاده أنه يبعث إليهم الرسـول من جنسـهم ليفقهوا عنه لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسـولاً من الملائكة لما اسـتطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه [5].

وفي قوله تعالى: **{ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ(9) }**[6] . بيان من الله أن الرسول لو كان ملكـاً لجُعل على هيئة رجـل، لكي يـألفوه ويأخـذوا عنه الـدين والعلم، لأن الناس لا يألفون إلا من كان من جنسهم، ولو جـاءهم الملك على هيئة رجل لكذبوه كما كذبوا الرسل من قبل [7].

ويتحصل من هـذا أن الله لو بعث إليهم ملكـاً رسـولاً إليهم لما استطاعوا أن يأخذوا عنه العلم والإيمـان لاختلاف الجنس والطبع ... ولو أنـزل الله إليهم ملكـاً رسـولاً لجعله على هيئة رجـل، ولو كـان كـذلك لكـذبوه كما كـذبوا الرسل من قبـل، فعـاد الأمر إلى التكذيب، وعندئذ تكون دعواهم بإرسال ملكاً رسولاَ باطلة أرادوا بها المعاندة والمشاقة .

4- تكذيب الرسل .

من الأمور التي ينبغي الوقوف عندها عندما نتكلم عن قصص الأنبيـاء، أن الأمم الـتي أرسل إليها الرسـل، كـذبت برسـلها وألصقت بهم التهم، مع أن الرسل لم يـأتوا بـأمور مسـتنكرة، بل جاءوهم بعبادة الله وحده ونبذ الأصـنام والأوثـان الـتي لا تضر ولا

---

1 . المؤمنون (24)
2 . المؤمنون(47)
3 . الإسراء (95)
4 . آل عمران(164)
5 . تفسير القرآن العظيم (95)
6 . الأنعام (9)
7 . انظر تفسير القرطبي (الأنعام (9))

تنفع، وجاءوهم بصلة الأرحام، وإطعام الطعام، والإحسان إلى الناس... وغير ذلك من صنائع المعروف؛ وهي أمور يستحسنها العقل بداهة، وترغب إليها النفوس، ولكن هو العناد و الاستكبار والتكذيب . ولما كان مصير صفوة خلق الله التكذيب والاتهام والسخرية، لم يخذل الله رسله، فكل أمة كذبت رسولها هلكت ونالها العقاب الأليم ولعذاب الآخرة أشق .

قال الله تعالى مسلياً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم، عندما كذبه قومه : **{ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ }** [1] . فقوم نوح قالوا له : **{ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ(24)إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ(25)قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ(26) }** [2] . فنصره الله لما كذبوه: **{ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ }** [3] . ونصر الله نبيه هود لما كذبوه: **{ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ }** [4] . ونصر الله نبيه شعيب لما كذبوه: **{ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ }** [5] . وكذا صالح ولوط وغيرهم من الأنبياء-عليهم السلام- .

فائدة :

المكذب برسول واحد مكذب لكل الرسل لقوله تعالى: { **كذب أصحاب الحجر المرسلين** } [6] . وأهل الحجر لم يُرسل إليهم إلا نبي واحد وهو صالح عليه السلام ، ولكن لما كذبوه وردوا دعوته والتي هي دعوة الأنبياء والرسل من قبله ومن بعده كان تكذيبهم له تكذيب لكل الرسل . يقول **شيخ الإسلام ابن تيمية** : (والأنبياء كلهم دينهم واحد ، وتصديق بعضهم مستلزم تصديق سائرهم وطاعة بعضهم تستلزم طاعة سائرهم،... ولهذا كان من صدق محمداً فقد صدق كل نبي؛ ومن أطاعه فقد أطاع كل نبي، ومن كذبه فقد كذب كل نبي، ومن عصاه فقد عصى

---

1. الأنعام 34 .
2. المؤمنون .
3. الأعراف 64 .
4. الشعراء 139 .
5. الشعراء 189 .
6. الحجر (80) ، وانظر سورة الشعراء الآيات (105،123،141،160،176)

كل نبي) [1] . وقال : (من أطاع رسولاً واحداً فقد أطاع جميع الرسل، ومن آمن بواحد منهم فقد آمن بالجميع، ومن عصى واحداً منهم فقد عصى الجميع، ومن كذب واحداً منهم فقد كذب الجميع؛ لأن كل رسول يصدق الآخر ويقول: إنه رسول صادق، ويأمر بطاعته. فمن كذب رسولاً فقد كذب الذي صدقه، ومن عصاه فقد عصى من أمر بطاعته) [2] . وقال **ابن سعدي** : (ومن كذب رسولاً فقد كذب سائر الرسل، لاتفاق دعوتهم . وليس تكذيب بعضهم لشخصه، بل لما جاء به من الحق الذي اشترك جميع الرسل بالإتيان به) [3] .

5- الأدلة على صدق الأنبياء والرسل وصحة دعوتهم .

أ-معجزات الأنبياء .

أيد الله -سبحانه- أنبيائه ورسله بمعجزات، تدل على صدق رسالتهم، والمعجزات هي الأمور الخارقة للعادة، التي لا يستطيعها لا الجن ولا الإنس . وهذا من رحمة الله بعباده فهو يعلم أن النفوس مولعة بالتكذيب، فكان في معجزات الرسل ما يقمع هذا التكذيب ويلجمه، حتى ينقادوا لرسولهم الذي أرسل إليهم ويتبعوه . والرسول والنبي قد تكون له أكثر من آية تدل على صدق رسالته ونبوته ولكن أغلب آيات الأنبياء والرسل جاءت من جنس ما برع فيه أقوامهم لأعجازهم وتحديهم وأنهم وإن بلغوا ما بلغوا فأمر الله فيهم نافذ، وقدرته عليهم قاهرة .

فآية صالح –عليه السلام- قال تعالى: **{ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ }** [4] .

وآية موسى- عليه السلام- قال تعالى:**{ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ(107) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ(108) }** [5] .

وآية عيسى عليه السلام- قال تعالى: **{ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ }** [6].

---

[1] . الفتاوى(19/185) بتصرف يسير .
[2] . النبوات (ص38)
[3] . تفسير السعدي (4/175) . ط . الرئاسة العامة للإفتاء (1404هـ)
[4] . هود (64)
[5] . الأعراف .
[6] . آل عمران 49

وآية نبينا عليه الصلاة والسلام، أعظم معجزة، قال تعـالى: **{ قُـلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَـأْتُوا بِمِثْـلِ هَـذَا الْقُـرْءَانِ لَا يَـأْتُونَ بِمِثْلِـهِ وَلَـوْ كَـانَ بَعْضُـهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا }** [1] .

قال ابن كثير: بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانـه، فكـان الغـالب على زمـان موسى عليه السـلام؛ السـحر وتعظيم السحرة، فبعثه الله بمعجزة بهـرت الأبصـار وحـيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسـلام، وصاروا من عباد الله الأبرار، وأما عيسى عليه السلام، فبعث في زمن الأطبـاء وأصـحاب علم الطبيعـة، فجـاءهم من الآيـات بما لا سـبيل لأحد عليه إلا أن يكـون مؤيـدا من الـذي شـرع الشـريعة، فمن أين للطـبيب قـدرة على إحيـاء الجمـاد، أو على مـداواة الأكمه والأبـرص، وبعث من هو في قـبره رهين إلى يـوم التنـاد. وكـذلك محمد صـلى الله عليه وسـلم، بعث في زمـان الفصـحاء والبلغـاء وتجاريد الشـعراء، فأتـاهم بكتـاب من الله عز وجـل، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يـأتوا بمثلـه، أو بعشر سـور من مثله، لم يستطيعوا أبداً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ... إلخ [2].

ب- صدق الأنبياء والرسل وصلاحهم وحسن أخلاقهم .

وهذا من أعظم الأمور التي تجعل النـاس تقبل الـدعوة وتتلقاهـا، لأن الصـدق والصـلاح وحسن الأخلاق من المحاسن الـتي تحبها النفوس وترغب إلى صاحبها فتحبه وتقبل عليه، والكذب والفساد وسوء الأخلاق، من المسـاوئ الـتي تنفر منها النفـوس، وصـاحبها بغيضاً إلى الخلق .

والأنبيـاء والرسل جميعهم اصـطفاهم الله واختـارهم لحمل رسالاته، وكانوا من خيـار أقـوامهم وأنفسـهم وأحسـنهم أخلاقـاً . فقال قوم ثمود لصالح عليه السلام : { **قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْـهِ مُـرِيبٍ**} [3] . أي : قد كنا نرجـوك ونؤمل فيك العقل والنفع. وهذا شهادة منهم، لنبيهم صالح، أنه ما زال معروفـاً بمكـارم الأخلاق، ومحاسن الشـيم، وأنه من خيـار قومه. قاله **ابن سعدي** [4] .

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، اشتهر في قومه بأنه الصـادق الأمين، وزكـاه الله جل في علاه بقوله : { **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُـقٍ**

---

1 . الإسراء 88

2 . تفسير القرآن العظيم (1/357) ط. دار الكتب العلمية 1418هـ

3 . هود (62)

4 . تيسير الكريم الرحمن ..(3/437)

عَظِيمٍ} [1] . ولـذلك لم يسـتطع أهل الضـلال من الأمم المكذبة أن تطعن في صـلاح الأنبيـاء وتقـواهم وحسن أخلاقهم، ولم تجد إلى ذلك سبيلاً . فاحتالوا وخلعـوا عليهم ألقـاب السـحر والكهانة والسفه والضلال وغير ذلك مما هم منه براء .

ت- الأنبياء والرسل لا يطلبون أجراً على دعوتهم .

مما يـدل على صـحة وصـدق دعـوة الأنبيـاء والرسـل، أنهم لا يطلبون أجـراً على دعـوتهم لأقـوامهم؛ بل يـدعونهم بالمجـان، لا يريدون من أحد جزاء ولا شكوراً، وإنما قصدهم تبليغ رسالة ربهم التي كُلفوا بها من لدن ربهم . فنوح وهود وصالح ولـوط وشـعيب كلٌ قال لقومه : { **وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْـرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَـالَمِينَ**} [2] . والمعـنى: أننا لا نسـألكم شـيئاً من أموالكم أجراً على دعوتنا إياكم، فهي بالمجان، ولكننا رسل ربنا، وأجرنا على ربنا، رب العالمين .

والنـبيون من قبلهم ومن بعـدهم، لم يكونـوا يرجـون من قـومهم شرفاً ولا مالاً ولا جاهاً ، وإنما كانوا يرجون الأجر من ربهم .

والمتأمل في مقالة النبـيين، يـرى أنها من الأدلة الظـاهرة على صحة دعواهم وصدقهم .

ث- عجز المكذبين عن إبادتهم واستئصالهم .

فهم منصـورون بنصر الله لهم {**إِنَّا لَنَنْصُـرُ رُسُـلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الـدُّنْيَا وَيَـوْمَ يَقُومُ الْأَشْـهَادُ**} [3] . والله حافظ رسله وأنبيائه من كيد أعدائهم، ولـذلك تحـداهم هـود عليه السلام بقوله : {**قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْـهَدُوا أَنِّي بَـرِيءٌ مِمَّا تُشْـرِكُونَ(54)مِنْ دُونِـهِ فَكِيـدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55)إِنِّي تَـوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } [4] . فتبرأ من آلهتهم، وتحـداهم أن يمسـوه بسـوء وهم جماعة كثيرة قوية وهو فرد واحـد، لكنه توكل على ربه واعتمد عليه في دفع الضرر عنه، ونعم الوكيل هو .

يقـول **ابن سـعدي** : (وفي هـذا كالإشـارة من الرسـل، عليهم الصلاة والسلام لقومهم بآية عظيمة وهو أن قومهم-في الغـالب- أن لهم القهر والغلبة عليهم- فتحـدتهم رسـلهم بـأنهم متوكلـون على اللـه، في دفع كيـدهم ومكـرهم، وجـازمون بكفايته إيـاهم .

---

[1] . القلم (4)
[2] . الشعراء (109)
[53]. غافر (51)
[4] . هود (54-56)

وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم، وإطفاء ما معهم من الحق. فيكون هذا ، كقول نوح لقومه: { يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله ، فعلى الله توكلت ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ، ثم اقضوا إلي و لاتنظرون} ... [1]

ومن أعظم المواقف التي تدل على حفظ الله لرسله وأنبيائه، قصة نبينا صلى الله عليه وسلم مع قومه لما أراد الهجرة من مكة إلى المدينة، ففي الليلة التي تآمرت فيها قريش على قتل محمد صلى الله عليه وسلم وأحاطوا بداره ترقباً لخروجه، ألقى الله عليهم النوم وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع على روؤسهم التراب نكاية بهم، ولم يناله أذى، وكذلك حفظ الله له حال هجرته وخروج قريش في طلبه . وفي نزول قوله تعالى : {**يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**} [2] . أبلغ الأدلة على حفظ الله لرسوله وعصمته له، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحرسه أصحابه، فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس .

ج- هلاك المكذبين واستئصال الله للظالمين المعاندين للرسل .

ومما يدل على صحة دعوى الرسل وصدقهم، أن الله عاقب مكذبيهم بعقوبات تستأصلهم وتبيدهم عن آخرهم، وذلك لظلمهم وتجبرهم وتكذيبهم بالحق لما جاءهم، ولم يستطيعوا أن يردوا تلك العقوبات عن أنفسهم وأنى لهم ذلك ! . والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن، فعلى سبيل المثال: قال تعالى : {**وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ**} [3] . وقال: {**فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ(66)وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ**} [4] . وقال: {**فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ**} [5] . وقال:{**وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ**} [6] .

---

[1] . تيسير الكريم الرحمن (4/130)
[2] . المائدة (67)
[3] هود . (58)
[4] . هود (66-67)
[5] . هود (82)
[6] . هود(94)

قال شيخ الإسلام **ابن تيمية** : وكـذلك ما يفعله الله من الآيـات، والعقوبات بمكـذبي الرسـل، كتغريق فرعـون، وإهلاك قـوم عـاد بالريح الصرصر العاتية، وإهلاك قوم صالح بالصيحة، وأمثال ذلك، فإن هذا جنس لم يعذب به إلا من كــذب الرسل ، فهو دليل على صدق الرسل .اهـ [1] .

6-تنوع العقاب على الأمم المكذبة .

يخبر الله تعالى عن الأمم المكذبة أنه -جل في علاه- أهلكم بذنوبهم، لما كذبوا الرسل وعصوهم ولم يتبعوا النور الذي معهم، فعـاقب كل أمه بعقـاب من عنـده، قـال تعـالى: **{ فَكُلًّا أَخَـذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِـبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْـهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُـونَ }** [2] . فأرسل الحجارة من سجيل منضود على قـوم لـوط، وعـذب قوم ثمود بالصيحة وقوم شعيب بالظلة، وخسف بقـارون وبـداره الأرض، وأغرق قوم نوح وقوم فرعون، وغيره من أنواع العذاب . وكل أمة من الأمم الـتي كـذبت وجحـدت الحق أتاها من العـذاب الذي تستحقه وعذاب الآخرة أكـبر . **وفي تنوع العـذاب على الأمم المكذبة فوائد يستشعرها المسلم، وهي:**

1- معرفة عظيم قدرة الله، وأن ليس لقدرته حد .
2- تنوع صنوف العذاب، يزيد المـؤمن خوفـاً من ربـه، فيـدعوه ذلك للاستكثار من العمل الصالح حتى ينجو من عذابه .
3- هـوان العبـاد على الله لما كـذبوا رسـله، وخـالفوا أمـره، وعبدوا غيره، فلم يبال الله فيهم، ولا في أي واد هلكوا .

7- كـثرة الاتبـاع وقلتهم، وكـذا حـالهم ليست عـاراً على الأنبياء وليست دليلاً على صحة الدعوة أوفسادها .

صحة الدعوة من عدمها، لا تخضع لكثرة الاتبـاع، أو حـال المتبعين من فقر أو غــنى أو شــرف...إلخ . وإنما تعــرف صـحة الدعوة بما يجريه الله من الـبراهين والآيـات على أيـدي الرسـل، وبما يحملونه من الرســالات الســماوية من عند ربهم، الــتي لا يمكن أن يأتي بها بشر . والمكذبون المعاندون من الأمم السابقة كانوا يحتجون بقلة أتباع الرسل، ويجعلونه مقياساً للحق ! .

فقال قوم نوح لنوح : {**فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِـهِ مَا نَـرَاكَ إِلَّا بَشَـرًا مِثْلَنَا وَمَا نَـرَاكَ اتَّبَعَـكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ**

---
[1] . النبوات (1/494) تحقيق د. عبد العزيز الطويات . ط . أضواء السلف : 1420هـ
[2] . العنكبوت 40

أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} [1] .

الأراذل هنا: هم الضعفاء والفقراء ، وبادي الرأي : أي بديهة الرأي أ ي ضعاف العقول . وكون الاتباع فقراء لا مال عندهم ولا جاه لديهم ليس عار يوصم به الأنبياء والرسل . يقول **القرطبي** : (وكان هذا جهلاً منهم؛ لأنهم عابوا نبي الله صلى الله عليه وسلم بما لا عيب فيه؛ لأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، إنما عليهم أن يأتوا بالبراهين والآيات، وليس عليهم تغيير الصور والهيئات، وهو يرسلون إلى الناس جميعاً ، فإذا أسلم منهم الدنيء لم يلحقهم من ذلك نقصان؛ لأن عليهم أن يقبلوا إسلام من أسلم منهم) [2]. ثم إن الغالب أن الكبراء يأنفون من اتباع الحق ولذا تجد أكثر أتباع الأنبياء والرسل هم فقراء الناس وضعفائهم، واستفد من مقالة هرقل لأبي سفيان عندما سأله عن حال محمد صلى الله عليه وسلم وقومه فكان مما جاء فيه : (وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل) [3] . وعلى هذا فحال التابعين للرسل لا يوجب نقصاً في حال المرسل ولا حال الرسالة، بل ظهر لك أن الفقراء والضعفاء هم الأقربون عند الله إذا ما اتقوا .

8- أهل الرياسة والغنى-غالباً- هم أول من يرد دعوة المرسلين، ويستكبر عنها .

فمن خلال تتبع قصص الأنبياء في القرآن، نرى أن أهل الرياسة والغنى (الملأ) هم أول من يرد دعوة المرسلين، وهو الغالب عليهم، وذلك لأن الرسل يأتون بالتوحيد، والعدل، وإقامة شرع الله في الأرض . وتلك المهمات العظام يأنف منها أهل الرياسة والغنى –غالباً- لأنهم يرون أنهم إن تابعوا الرسل فيما جاءوا به، ستنحط رتبتهم، ويقل شأنهم، ويتسلط عليهم الأصاغر ! ، وما علموا لو أنهم آمنوا وصدقوا الرسل، وعملوا الصالحات، وأقاموا شرع الله في أرضه، وأنفقوا من فضول أموالهم في سبيل الله، لحازوا قصب السبق، وسعدوا في الدنيا قبل الآخرة، ولرفعهم الله درجات عظيمة . ولكن هو الجهل، وحب الدنيا، أورثهم الاستكبار والعناد فخسروا الدنيا والآخرة .

قال تعالى حاكياً قول الملأ من قوم هود : {فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا

---

[1] . هود (27)

[2] . الجامع لأحكام القرآن المجلد الخامس (9/ 17)ط. دار الكتب العلمية (1420هـ)

[3] . البخاري (7) ومسلم (1773) .

نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ } (1) .
وقال تعالى : {وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ} (2) .
وكذلك حال نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد لقي من أذى صناديد قريش واستكبارهم وعنادهم شيئاً كثيراً .

9-طرق ووسائل أهل الباطل لرد دعوة الأنبياء والرسل .

يحاول أعداء الدين في كل زمان وحين رد دعوة الرسل بكل طريق يجدون إليه سبيلاً، متخذين بذلك كافة الوسائل التي من خلالها يشوهون الحق، ويشوشون على أهل الحق، ليوهموا أنفسهم، ويصدوا اتباعهم، زاعمين أنهم على الحق المبين، وما عداهم في ضلال مبين . فمن طرقهم ووسائلهم :

أ- محاولات أهل الباطل في استمالة الأنبياء وصرفهم عن بعض الحق .

من طرق أهل الضلال والغي التي حاولوا بها صد الأنبياء والرسل عن تبليغ دعوتهم، هو استمالتهم وملاطفتهم لكي يتنازل لهم النبي أو الرسول عن بعض ما جاء به .. ويظهر هذا جلياً في قوله تعالى واصفاً محاولة المشركين في صرف محمد صلى الله عليه وسلم عن إلزامهم ببعض ما جاء به فقال : { **وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَه وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا** } (3) . فمما جاء في كلام المفسرين حول هذه الآية أن قريشاً أو ثقيفاً لا ينت رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى يترك لهم بعض ما عندهم من الباطل على أن يتبعوه إن هو وافقهم على ما أرادوا ، ولكن الله ثبت نبيه وعصمه من موافقتهم { **وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا**} (4) .

وتلك إحدى وسائل أهل الباطل دوماً، أنهم يتقربون إلى الأنبياء وورثتهم أولاً، ليكسبوهم إلى صفهم وليتغاضوا عن بعض

---

[1] . هود (27)
[2] . المؤمنون (33)
[3] .الإسراء (73)
[4] . الإسراء (74)

أعمالهم، فإن نالوا منهم ما أرادوا قربوهم ووالوهم، وإلا عادوهم ونابذوهم .

ب- التماس سقطات أهل الحق الـتي تكـون منهم في زمن الجهل، أو تضخيم الزلات .

والمـرء في زمن جهالته لا يؤاخذ بما كسـبه فيهـا، إذا تـاب وآمن وعمل صـــالحاً، ولا يعيب عليه ذلــــك، وإنما العيب كل العيب أن يسـتمر المـرء في غيه وضـلاله حـتى مع بيـان طريق الحق له . وكذلك قد يزل المرء في حال استقامته على الطريق، والعصـمة لا تكـون إلا للأنبيـاء والرسـل، ومع ذلك من تـاب من زلته وأنـاب إلى ربه فقد هُدي إلى صراط مستقيم، ولا يشين المرء ذلـك، بل يُحمد على رجوعه وإنابته إلى ربه .

فمن أمثلة ذلك : تضـخيم فرعـون لما حـدث من موسى عليه السلام في زمن شبابه، عندما قتل القبطي ثم فر هارباً، ثم تــاب إلى ربه وتاب الله عليه ، واصطفاه مولاه وجعله من المرسلين ، وبعثه إلى فرعون وملأه فاستكبر فرعون ومن معه، وعيره بأمر فعله في حــال جهله رغبة منه في صد الحق ورد دعوته فقــال: {**وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ**}[1] . فرد عليه موسى بقوله : {**قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ**} [2]، حيث صـدر مـني ما صـدر في حـال الجهـل، وعن طريق الخطـأ، فلماذا أعير بذلك ؟ .

ت- وصف الأنبياء والرسل بالسحر والجنون والكـذب... .

وتلك طريقة الظـالمين، يلصـقون التهم بشـخص الـداعي حـتى يتسنى لهم ولاتباعهم رد دعوتـه، والقـدح فيهـا، فـأي دعـوة تقبل من ساحر أو كاهن أو مجنون ؟! .

قال تعالى عن فرعون مشهراً بموسى عليه السلام : {**فَتَـوَلَّى بِرُكْنِـهِ وَقَـالَ سَـاحِرٌ أَوْ مَجْنُـونٌ**} [3] وفي سـياق نفس السورة –سورة الذاريات- وبعد أن قص الله شيئاً من أخبار قــوم هود وقوم نوح قال تعالى : {**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَـوْا بِـهِ بَـلْ هُمْ قَـوْمٌ طَـاغُونَ** } [4] . يقـول **ابن كثـير**: أي لكن هم قـوم طغاة تشابهت قلوبهم، فقـال متـأخرهم كما قـال متقـدمهم. اهــ [5] . وكذلك نبينا محمد صـلى الله عليه وسـلم لم يسـلم من أذى

---

[1] . الشعراء (19)
[2] . الشعراء (20)
[3] .الذاريات (39)
[4] . الذاريات(52-53)
[5] . تفسير القرآن العظيم (4/242) ط. دار الكتب العلمية 1418هـ

قومه له فأخبر الله عنهم أنهم قالوا فيه أنه ساحر وكذاب : { **...وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ** } [1] . وقالوا عنه شاعر : { **... بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ** } [2] . يقول **ابن سعدي** : وإنما يقولون هذه الأقوال فيه، حيث لم يؤمنوا به، تنفيراً عنه لمن لم يعرفه [3] .

ث- استخدام الإعلام لتشويه صورة الأنبياء والنيل منهم .

يظهر هذا جلياً في مقالة فرعون لما أعيته الحيل، وخروج موسى ببني إسرائيل، اشتد غضب فرعون فأمر منادياً : {**فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ(53)إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ(54)وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ(55)وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ(56)}** [4] **. يقول ابن كثير :** واشتد غضبه على بني إسرائيل -أي فرعون- لما يريد الله به من الدمار، فأرسل سريعاً في بلاده حاشرين، أي من يحشر الجند، ويجمعهم كالنقباء والحجاب ونادى فيهم {إن هؤلاء} يعني بني إسرائيل {**لشرذمة قليلون**} أي لطائفة قليلة {**وإنهم لنا لغائظون**} أي كل وقت يصل منهم إلينا ما يغيظنا {**وإنا لجميع حاذرون** } أن نحن كل وقت نحذر من غائلتهم ... [5]. وفي السياق السابق من الإعلام والتشويه ما فيه، حيث وصفهم فرعون بالقلة وأنهم قد أغاظوا ملكهم، وهم أصحاب غدر . وكل ذلك من أجل تسويغ قتالهم واستئصالهم .

قلت : والعلماء ورثة الأنبياء أتباع الرسل لهم من ذلك نصيب كبير، فكم نالهم من الأذى والتشويه، وكم أشيع عنهم من قول باطل، وكم رموا بوصف نفر الناس عنهم، ولا أدل على ذلك مما رُمي به الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- ودعوته بأنها (وهابية)، لأجل تنفير الناس عنها . وما زال العلماء الربانيون إلى لدن اليوم يأتيهم من هذا شيء كثير، ولا ينبغي لأهل العلم والفضل الحزن من جراء ذلك، فإن هذا الإيذاء لدليل على صحة الدعوة .

فائدة :

الذي ينهى عن الفاحشة وينكر المنكر ، يحاول أعدائه نفيه وإخراجه قال تعالى في بيان مقالة قوم لوط لما أنكر عليهم الفاحشة **{ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ**

---

[1] . ص (4)
[2] .الأنبياء (5)
[3] . تفسير الكريم الرحمن (5/210-211)
[4] .الشعراء (53-56)
[5] . تفسير القرآن العظيم (3/340)

مِنْ قَـرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَـاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } [1] . يقـول **شـيخ الإسـلام** : وهـذا حـال أهل الفجـور إذا كـان بينهم من ينهـاهم، طلبوا نفيه وإخراجه . أهـ [2] .
قلت: والتاريخ والواقع يشهد لذلك .

ج- قتال الأنبياء والرسل وقتلهم .

وتلك هي آخر وسائلهم، إذا أعيتهم الحيـل، ونفد صـبرهم، قـاتلوا الأنبيـاء والرسل وحـاربوهم، أو قتلـوهم إن تمكنـوا منهم، كحـال اليهود مع أنبيائهم، فإنهم عليهم لعـائن الله المتتابعة قتلـوا كثـيراً من أنبيـائهم، والله الموعد . {**لَقَـدْ سَـمِعَ اللَّهُ قَـوْلَ الَّذِينَ قَـالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِـيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَـاءُ سَـنَكْتُبُ مَا قَـالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيـقِ**} [3] .

وهذا هو حال الأنبيـاء كلهم، فما من نـبي إلا وعـودي وقوتل من قبل قومه، من لدن نوح عليه السـلام إلى محمد صـلى الله عليه وآله وسـلم . ولكن الغلبة تكـون لله ولرسـوله ولكتابه ولعبـاده الصالحين . والآيات في ذكر الملاحم التي دارت بين أنبياء الله و أ عدائه، وفي ذكر أخبار هلاك الأمم الـتي كـذبت رسـلها وحاربتها كثـيرة في القـرآن الكـريم، وكثرتها ومعرفتها أغنتنا عن سـردها ههنا .

فائدة :

يخـبر الله سـبحانه وتعـالى عن إهلاك المخـالفين للرسل ونجـاة اتباع المرسلين : ولهذا يـذكر سـبحانه في سـورة الشـعراء قصة موسى وإبراهيم، ونوح وعاد وثمود، ولـوط وشـعيب، ويـذكر لكل نـبي إهلاكه لمكـذبيهم والنجـاة لهم ولأتبـاعهم ، ثم يختم القصة بقوله : **{ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـةً وَمَا كَـانَ أَكْثَـرُهُمْ مُـؤْمِنِينَ(174)وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(175) }**[4] ـ ، فختم القصة باسمين من أسمائه تقتضيها تلك الصفة ، وهو : { العزيز الـرحيم } فـانتقم من أعدائه بعزتـه، وأنجى رسـله واتبـاعهم برحمته . أهـ [5].

10- شبهات ومعارضة المشركين للرسل والرد عليها .

---

1 . الأعراف (82)
2 . الفتاوى (15/334)
3 .آل عمران (181)
4 . الشعراء
5 . الفتاوى (19/98)

تتابع أعداء الرسل من لدن نوح حتى محمد عليهم الصلاة والسلام على إثارة الشبه، ومطالبة الأنبياء والرسل، واقتراح الآيات عليهم، لا لرغبة في زيادة الاطمئنان -وإلا فالآيات والبراهين التي أتى بها الرسل كافية لإيمان من أراد الحق - وإنما أرادوا مشاقة الرسل وإظهار عجزهم، حتى يوهموا أنفسهم وأتباعهم أنهم على الحق، وأن رسلهم على ضلال مبين .

ولقد قص الله علينا في كتابه شيئاً من مطالب المشركين والآيات التي اقترحوها، وتولى الله بنفسه الرد على شبههم، مما لا يدع مجالاً للشك بأن المعاندين للرسل ما اقترحوا الآيات إلا عناداً واستكباراً .

أ- قوله تعالى: {**وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً** }... إلى قوله : { **قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً** } [1] .

طلب المشركون من رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات تدل على صدق نبوته وهي :

{ **وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا(90)أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا(91)أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا(92)أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ...** } **فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول: { قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا(93)** } [2] .

ولو أجابهم الله إلى ما سألوا، ثم لم يؤمنوا لحلّ بهم من العذاب والنكال ما حلّ بالأمم التي سبقتهم، ولكن الله أمهلهم . قال تعالى : { **وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا**} [3] . وقال تعالى :{**بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ(5)مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ(6)**} [4] .

يقول **ابن كثير** : { **وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ** } : أي نبعث بالآيات ونأتي بها على ما سأل قومك منك، فإنه سهل علينا

---

[1] . الإسراء (90-94)
[2] الإسراء .
[3] . الإسراء (59)
[4] . الأنبياء (4-6)

يسير لدينا، إلا أنه قد كـذب بها الأولـون بعد ما سـألوها ، وجـرت سـنتنا فيهم وفي أمثـالهم أنهم لا يـؤخرون إن كـذبوا بعد نزولها . اهـ [1] . وقال ابن سعدي : ... وهؤلاء كـذلك ، لو جـاءتهم الآيـات الكبـار، لم يؤمنـوا . فإنه ما منعهم من الإيمـان، خفـاء ما جـاء به الرسول واشـتباهه ، هل هو حق أو باطـل؟ . فإنه قد جـاء ومعه من الـبراهين الكثـيرة، بما دل على صـحة ما جـاء بـه، المـوجب لهداية من طلب الهداية فغيرها مثلهـا، فلا بد أن يسـلكوا بهـا، ما سلكوا بغيرها، فـترك إنزالها والحالة هـذه ، خـير لهم وأنفـع. اهــ . [2]

ب- قو له تعـالى: { **وَقَـالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُـونَ لِقَاءَنَا لَـوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا** }.

وهـذا طلب آخر من المشـركين المكـذبين للرسـل، حيث طلبـوا نزول الملائكة عليهم لتخبرهم بصدق الرسول وصدق رسـالته، أو يرون ربهم فيخبرهم بحقيقة رسوله. فأجابهم الله بقوله :

{ **... لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا(21)يَوْمَ يَـرَوْنَ الْمَلَائِكَـةَ لَا بُشْـرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْـرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا** } [3] . فيقـول القرطـبي بعد هـذه الآيات : .. حيث سألوا الله الشـطط؛ لأن الملائكة لا تـرى إلا عند الموت أو عند نـزول العـذاب، والله تعـالى لا تدركه الأبصـار وهو يدرك الأبصار، فلا عين تراه . اهـ [4] .

ت- قو له تعالى: { **وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـذَا الْقُـرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** }

يقترح كفار مكة على الله أن لو أُنزلت الرسالة على رجل عظيم من مكة أو الطـائف، كالوليد بن المغـيرة، أو أبي مسـعود عـروة الثقفي، فهؤلاء المذكورون هم أهل لحمل الرسالة وليس محمداً ! . فرد الله عليهم بقوله :

{ **أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ** } [5] .

يقـول **القرطـبي** : { **أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ** } : يعـني النبـوة فيضـعونها حيث شـاءوا . { **نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } أي أفقرنا قومـاً وأغنينا قومـاً؛

---

[1] . تفسير القرآن العظيم (3/51)
[2] . تيسير الكريم الرحمن (4/293)
[3] . الفرقان (21-22)
[4] . الجامع لأحكام القرآن . المجلد السابع (13/15)
[5] . الزخرف (31-32)

فإذا لم يكن أمر الدنيا إليهم فكيف يفوض أمر النبـوة إليهم . اهــ [1] . ويقول **ابن كثير** : ي ليس الأمر مردوداً عليهم، بل إلى الله عز وجـل، والله أعلم حيث يجعل رسـالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً [2] .

ويقول **السعدي** : فإذا كـانت معـايش العبـاد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعـالى ، وهو الـذي يقسـمها بين عبـاده، فيبسط الـرزق على من يشاء، ويضيقه على من يشـاء، بحسب حكمتـه، فرحمته الدينية، التي أعلاها النبوة والرسـالة، أولى وأحـرى، أن تكـون بيد الله تعالى، فالله أعلم حيث يجعل رسالته [3].

ث- قو له تعـالى: { **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـاتٍ قَـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُـوا أَيُّ الْفَـرِيقَيْنِ خَيْـرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا**} [4] .

وهــذا لــون آخر من ألــوان المعارضة والتكــذيب، حيث يجعل المشركون الحق في جـانب من هو أكـثر أمـوالاً وأولاداً، وأحسن منظراً وصـورة ! . يقـول ابن سـعدي : أي : وإذا تتلى عليهـؤلاء الكفــار آياتنا بينــات، أي: واضــحات الدلالة على وحدانية اللـــه، وصدق رسله توجب لمن سمعها ، صدق الإيمان، وشدة الإيقــان- قابلوها بضد ما يجب لها، واستهزءوا بها، ومن آمن بها، واسـتدلوا بحسن حـالهم في الـدنيا، على أنهم خـير من المؤمـنين فقـالوا معارضـــين للحق : { **أَيُّ الْفَــرِيقَيْنِ** }أي : نحن والمؤمـــنين { **خَيْـرٌ مَقَامًا** } أي: في الـدنيا ، من كـثرة الأمـوال والأولاد ، وتفوق الشهوات { **وَأَحْسَنُ نَدِيًّا** } أي مجلساً .

أي : فاستنتجوا من هذه المقدمة الفاسدة، بسبب أنهم أكثر مالاً وأولاداً وقد حصلت أكثر مطالبهم من الدنيا، ومجالسهم وأنديتهم مزخرفة مزوقة . والمؤمنـون بخلاف هـذه الحـال، فهم خـير من المؤمــنين، وهــذا دليل في غاية الفســاد . وهو من بــاب قلب الحقائق، وإلا فكـثرة الأمـوال والأولاد، وحسن المنظـر، كثـيراً ما يكون سبباً لهلاك صاحبه، وشقائه، وشره، ولهذا قال تعالى :
{ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَـرْنٍ هُمْ أَحْسَـنُ أَثَاثًا** } [5] . أي متاعــاً ، من أوان وفــرش، وبيــوت وزخــارف { **وَرِئْيًا** } أي : أحسن مــرأى ومنظــراً ، من غضـارة العيش، وسـرور اللــذات، وحسن الصور. فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثاثـاً ورئيـاً ، ولم يمنعهم ذلك من حلول العقاب بهم، فكيف بهـؤلاء، هم أقل

---

[1] . الجامع لأحكام القرآن المجلد الثامن (16/56)
[2] ز تفسير القرآن العظيم (4/127)
[3] . تيسير الكريم الرحمن (6/643)
[4] . مريم (73)
[5] . مريم (74)

منهم وأذل، معتصمين من العذاب، {أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر} ؟ . وعُلم من هذا، أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا، من أفسد الأدلة، وأنه من طرق الكفار . اهـ . [1]

ج- قوله تعالى: { **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ** } .

وهذا لون آخر من ألوان التكذيب والمشاقة للرسل، وهو أن المشركين طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم -تعنتاً- أن يأتيهم بقرآن غيره أو يبدله . أي: رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر أو بدله إلى وضع آخر ، قاله **ابن كثير**[2]. فأمره الله رسوله أن يقول :

{ **قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي**} أي : ليس إلي إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلغ عن الله { **إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15)**}ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به : { **قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ**}. أي : هذا إنما جئتكم عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته، والدليل على أني لست أتقوله من عندي ولا أفتريه، أنكم عاجزون عن معارضته وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل لا تنتقدون عليّ شيئاً تغمصوني به ولهذا قال : { **فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(16)** } [3] أي : أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه فيما سأله عن صفة النبي صلى الله عليه وسلم، قال هرقل لأبي سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت : لا ، وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين ومع هذا اعترف بالحق - والفضل ما شهدت به الأعداء- فقال هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله [4].

وفي قوله تعالى : { **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا** } . يقول ابن سعدي : أن الذي حملهم على هذا التعنت، الذي صدر منهم، هو عدم إيمانهم بلقاء

---

[1] . تيسير الكريم الرحمن (5/131-132)
[2] . تفسير القرآن العظيم . (2/422)
[3] . الآيات السابقات من سورة يونس (15-16) .
[4] . تفسير الآيات السابقات لا بن كثير (2/422)

الله، وعدم رجائه، وأن من آمن بلقاء الله، فلا بد أن ينقاد لهذا الكتاب، ويؤمن به، لأنه حسن القصد [1].

ح- قوله تعالى: { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ } أي : القرآن .

لقد كذب أهل الباطل محمداً صلى الله عليه وسلم، بآية عظيمة لا يستطيعون لها دفعاً ولا معارضة، فقالوا: إن القرآن الذي أتى به محمداً مختلق، مفترى ليس من عند الله -وهم أهل الفصاحة!-؛ بل إنهم كذبوا وقالوا إثماً وزوراً : إن هذا القرآن أخذه محمد من رجل أعجمي كان في مكة لبعض بطون قريش، وكان بياعاً يبيع في الصفا [2] ، فأكذبهم الله بقوله : **{ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ(103) }** [3] .

ثم تحداهم الله وتدرج معهم في التحدي ، فتحداهم أولاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن المختلق المفتري بزعمهم، فقال : **{ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(88)}** [4] . وتحداهم بأن يأتوا بعشر سور : **{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(13)فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(14) }** [5]. ثم تحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة ولن يستطيعوا أبداً . **{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(38)بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ}** [6].

خ- قوله تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً}

يعترض الكفار -تعنتاً وسؤالهم فيما ليس لهم به علم- ، هلا نزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم دفعة واحدة كنزول التوراة والإنجيل ونحوهما من الكتب السابقة ؟ . فرد عليهم ربهم بقوله :

---

[1] . تيسير الكريم الرحمن (3/336)
[2] . انظر تفسير ابن كثير عند هذه الآية .
[3] . النحل .
[4] .الإسرا.
[5] . هود
[6] . يونس.

{ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا(32)وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا(33) } [1] . يقول الحافظ **ابن كثير**-رحمه الله- : أنه إنما نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث، وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به، كقوله : {وقرآنا فرقناه} . ولهذا قال : { **لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا** } قال قتادة: بيناه تبييناً، وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم : وفسرناه تفسيراً { **وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ** } أي بحجة وشبهة { **إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا** } أي : ولا يقولون قولاً يعارض به الحق، إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وافصح من مقالتهم . اهـ [2] .

د- طلب المكذبين المعاندين من رسلهم آيات تدل على صدقهم .

الآيات والبراهين التي تظهر علي أيدي الرسل من عند الله، ينزلها على رسله متى شاء تأييداً لدعوتهم وإظهاراً لصدقهم وصحة رسالتهم، والرسل ليس لهم من أمر الآيات شيء قال تعالى : **{ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ(78) }**[3].

وما زال المكذبون بالرسل والرسالة يطالبون رسلهم بالآيات والبراهين التي تدل على صدقهم وصحة رسالتهم، فمما قالوه في ذلك مع رد الله عليهم موبخاً لهم ومظهراً إفكهم وباطلهم : **{ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(37) }**[4]. **{ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ(20) }** [5] . **{ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ(118) }** [6] . **{ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ(7) }** [7] . **{ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ**

---

[1] . الفرقان .
[2] . تفسير القرآن العظيم (3/322)
[3] .غافر .
[4] . الأنعام .
[5] . يونس .
[6] . البقرة .
[7] . الرعد .

مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ(27)} [1]. **{ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى(133)}** [2]. **{ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (5)مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ(6)}** [3].

بل قد أقسم بعضهم أنهم إذا جاءتهم آية ليؤمنن ! :

{ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا} فرد الله عليهم: **{ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ(109)}** [4] .

وقد بين الله عز وجل حال الكفار المعاندين، وذكر أساليبهم وكلامهم في رد الرسل والتكذيب بالآيات الواضحة البينة، فقال عز من قائل :

{ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ(4)} [5]. **وقال : { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(25)}** [6]. **وقال :**

{ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ(124)} [7].

وقال : { وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ(132)} [8]. **وقال : { وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ(97)}** [9]. **وقال تعالى : { وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ(14)}** [10]. **وقال : { وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ(2)}** [11]. **وقال : { وَلَقَدْ صَرَّبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ**

---

[1] . الرعد .
[2] . طه .
[3] . الأنبياء .
[4] . الأنعام.
[5] . الأنعام .
[6] .الأنعام .
[7] .الأنعام .
[8] .الأعراف .
[9] . يونس .
[10] . الصافات .
[11] . القمر .

وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ(58)}[1].
وقد أخرج الله بعض الآيات لما سألها بعض الأقوام السابقين – تعنتاً - ، كما سأل قوم ثمود صالحاً أن يخرج لهم آية، فأجابهم الله لما أرادوا، ولما كفروا عاجلهم الله بالعقوبة ، فقالت ثمود لرسولها :
{ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(154) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ(155) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ(155)وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ(156)فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ(157)}ثم عاجلهم الله بالعقوبة لما خالفوا أمر ربهم وكذبوا رسوله :
{فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ(158)}[2] .
ولو شاء الله لأنزل آية تجعل الناس مؤمنين، كما قال تعالى :
{ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ(4)}[3]. ولكن لا حاجة إلى ذلك ، ولا مصلحة فيه، فإنه إذ ذاك الوقت، يكون الإيمان غير نافع . وإنما الإيمان النافع، هو الإيمان بالغيب . قاله **السعدي** [4].

11- شبهات في قصص الأنبياء والرد عليها .

أ- ما نوع الخيانة المذكورة لامرأتي نوح ولوط عليهما السلام .

ذكر الله عز وجل في كتابه أن امرأة نوح وامرأة لوط خانتا زوجيهما، ولم يُفصح القرآن الكريم عن نوع الخيانة، وقد يعلق بالذهن أنها خيانة الفراش، وذلك لما كان عليه قوم لوط من فعل الفاحشة . ولكن ما قد يعلق بالذهن لا يصح أبداً، فإن الله قد عصم نساء أنبيائه ورسله من الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء، وإنما الخيانة المذكورة في الآية هي خيانة الدين، وكيف أنهما كانتا تحت نبيين وبينهما من العشرة والمخالطة، ثم تخالفهما إلى غير دينهما . وتفسير الآية كما جاء عن حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما قال : (ما زنتا ، أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه . وقال العوفي عن ابن عباس : كانت خيانتهما

---

1 . الروم .
2 . الشعراء .
3 . الشعراء .
4 . تيسير الكريم الرحمن (5/505)

أنهما كانتا على غير دينهما، فكانت امرأة نوح تطلع على سر نوح فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به، وأما امرأة لوط فكانت إذا ضاف لوط أحداً أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء . وقال الضحاك عن ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط إنما كانت خيانتهما في الدين ..) [1] .

ب- ما مراد لوط عليه السلام بقوله لقومه { يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ} [2] . عندما جاءوا يريدون أضيافة ؟

لما علم قوم لوط بأضيافه الذين كانوا عنده، وكانوا ملائكة أرسلهم الله على صورة شباباً حسن الصورة فتنة لقوم لوط، فلما علموا بهم جاءوا سريعاً إلى بيت لوط طالبين فعل الفاحشة بهم، وكان يوما عصيباً على لوط : **{وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ(77)وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ(78)قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ(79)قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ(80)}** [3] . فاعتذر لوط عن تقديم أضيافه لهم وقال : {هؤلاء بناتي هن أطهر لكم } .

ومن ثم اختلفت عبارات المفسرين في مراد لوط عليه السلام بكلامه هذا، مع قطعهم أن لوط عليه السلام لم يرد منهم فعل الفاحشة ببناته، فإن هذا مما ينزه عنه كثير من الناس، فما بالك بالأنبياء والرسل الذين هم صفوة البشر .

ونحن نورد لك بعضاً من كلام أهل العلم في تفسير هذه الآية :

قال **ابن كثير** : قال **مجاهد** : لم يكن بناته، ولكن كن من أمته، وكل نبي أبو أمته، وكذا روي عن قتادة وعن غير واحد. اهـ [4] .

ومراده أن النبي للأمة بمنزلة الأب ونساؤه بمنزلة الأمهات، كحال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم {**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**} [5] . فأرشدهم لوط عليه السلام إلى نكاح بناته من قومه الذين أرسل فيهم .

وقد قوى هذا القول القرطبي في تفسيره فقال بعدما ساق جملة من الكلام السابق : (ويقوي هذا أن في قراءة ابن مسعود

---

1 . تفسير ابن كثير (4/401)، وانظر فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (3(7/473

2 . هود (78)

3 . هود (77-80)

4 .تفسير القرآن العظيم (2/466)

5 . الأحزاب (6)

: {النبي أولى بـالمؤمنين من أنفسـهم وأزواجه أمهـاتهم وهو أب لهم }) [1] .
وقال القرطبي : قالت طائفة : (إنما كان الكلام مدافعة ولم يـرد إمضاءه، روي هذا القول عن أبي عبيدة؛ كما يقال لمن يُنهى عن أكل مـال الغـير: الخـنزير أحل لك من هـذا. وقـال عكرمة : لم يعرض عليه بناته ولا بنات أمته، وإنما قـال هـذا لينصـرفوا) [2] . وقيل غير ذلك .

ت- قال إبراهيم عليه السلام : { رَبِّ أَرِنِي كَيْـفَ تُحْيِي الْمَوْتَى } وقال زكريا عليه السـلام : { رَبِّ اجْعَـلْ لِي ءَايَةً } . هل كان طلبهما شكاً في موعود الله والإيمان به ؟ .

قد تسـتعظم النفس أن يطلب الخليل إبـراهيم عليه السـلام من ربه أن يريه كيف يحـيى المـوتى ! ، وكـذلك طلب زكريا عليه السـلام أن يجعل ربه له آية عنـدما بُشر أنه سـيولد له ولد على كبره ومن زوجه العاقر .
ولكن باستعراض سياق الآيـات، ومعرفة كلام المفسـرين للآيـات السابقات يزيل الإشكال ويرفع اللبس . ففي مقالة إبراهيم عليه السلام يقول الله تعالى :
{**وَإِذْ قَالَ إِبْـرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْـفَ تُحْيِي الْمَـوْتَى قَـالَ أَوَلَمْ تُـؤْمِنْ قَـالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَـالَ فَخُـذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُـلِّ جَبَـلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ**} [3] .
طلب إبــراهيم الخليل عليه السـلام من ربه أن يريه كيف يحـيى الله الموتي، وسأله ربه : أو لم تؤمن ؟ أي هل تشك في قـدرتي على إحياء المـوتى ؟ . فجـاء الجـواب من إبـراهيم عليه السـلام: بلى آمنت بك يا رب، ولا أشك في قدرتك على إحياء الموتى .
فسؤال إبراهيم عليه السـلام، طلب طمأنينة القلب، لأن القلـوب تعتريها وساوس الشيطان ونزغاتـه، الـتي تكـذب بـالحق، وتـزين الباطل، فطلب إبـراهيم أن يـرى إحيـاء الله للمـوتى عيانـاً حـتى تسكن نفسه ويهـدأ قلبـه، ولا يكـون فيها ما يعكر صـفو الإيمـان، فأراه الله ما أراد، فسكنت نفسـه، وازداد إيمانـاً فـوق إيمانه بما رأى من آيات ربه .
قال **القرطبي** – في تفسير صدر هـذه الآيـة- : اختلف النـاس في هـذا السـؤال هل صـدر من إبـراهيم عن شك أم لا ؟ فقـال

---
[1] . الجامع لأحكام القرآن (المجلد الخامس 9/51)
[2] . الجامع لأحكام القرآن (المجلد الخامس 9/51)
[3] . البقرة (260)

الجمهـور: لم يكن إبـراهيم عليه السـلام شـاكاً في إحيـاء الله الموتى قط وإنما طلب المعاينـة، وذلك أن النفـوس مستشـرفة إلى رؤية ما أخـبرت بـه؛ ولهـذا قـال عليه السـلام : (ليس الخـبر كالمعاينة) . .. وقال في تأويل قوله تعالى : { **قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** } : أي سألتك ليطمئن قلبي بحصل الفـرق بين المعلوم برهاناً والمعلوم عياناً . اهـ [1] .

ونظـير هـذا ما حصل لزكريا عليه السـلام فإنه الله عز وجل لما بشره على كبره وعقم زوجه بالولد، وكـانت العـادة الـتي أجراها الله على خلقه أن كبـير السن ، أو العقيم لا يـأتي منهما الولـد، فكيف إذا اجتمعا ؟

قـال تعـالى : { **يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا(7)قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُـونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَـرِ عِتِيًّا(8)قَـالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْـلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا(9)قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي ءَايَةً قَـالَ ءَايَتُـكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَـالٍ سَـوِيًّا(10)** }ـ [2] . فلما بشر الله زكريا بالولد على كبره وعقم زوجه ، طلب آية لا شـكاً في قـدرة اللـه؛ ولكن ليزول ما في قلبه من خطرات الشيطان ووساوسه، التي تُضعف الإيمان بالله، ولتحصيل الطمأنينة القلبية . فكانت الآية أن منعه الله من الكلام ثلاثة أيـام من غـير خـرس ولا آفـة، فسـكن قلب زكريا عليه السلام بتلك الآية وأيقن بموعود الله .

قال ابن سعدي في تفسير قوله تعالى : { **قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي ءَايَةً** } وليس هذا شكاً في خبر الله، وإنما هـو، كما قـال الخليل عليه السـلام { **رَبِّ أَرِنِي كَيْـفَ تُحْيِي الْمَـوْتَى قَـالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** } فطلب زيـادة العلم ، والوصـــــول إلى عين اليقين بعد علم اليقين، فأجابه الله إلى طلبته رحمة به. اهـ [3] .

ث- هل همَّ يوسف بامرأة العزيز حقيقة ؟

اختلفت أقـوال المفسـرين في الهم الـذي كـان من قبل يوسف عليه السـلام ما نوعه ؟ فقـال بعضـهم كلامـاً لا يُجـزم به لكونه منقولاً من كتب أهل الكتاب . وسلك **ابن كثير** مسـلك السـلامة فقـــال : وأكـــثر أقـــوال المفســرين هاهنا متلقى من كتب أهل الكتاب، فالإعراض عنه أولى بنـا. والـذي يجب أن يعتقـد: أن الله تعالى عصمه وبرأه، ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها، ولهذا قال تعالى : **{ وَلَقَـدْ هَمَّتْ بِـهِ وَهَمَّ بِهَا لَـوْلَا أَنْ رَأَى**

---

[1] . الجامع لأحكام القرآن . المجلد الثاني (3/193،195)
[2] .مريم (7-10)
[3] . تيسير الكريم الرحمن (5/93)

بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَـاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [1] أهــ [2]. ومــال **القرطبي** إلى أن همَّ يوسف كان خطرات النفس ليس إلا ، فقال : ..وإذا كان نبياً فلم يبق إلا أن يكـون الهم الـذي هم به ما يخطر في النفس ولا يثبت في الصـدر، وهو الـذي رفع ا لله فيه المؤاخـذة عن الخلـق، إذ لا قدرة للمكلف على دفعه.. أهـ [3].

فائدة:

قال **الحسن البصري** -رحمه اللــه- : إن الله عز وجل لم يــذكر معاصي الأنبياء ليعيرهم بها؛ ولكن ذكرها ليكلا تيأسوا من التوبــة. أهـ [4] .

ج-سجود أبوي واخوة يوسف ليوسف ؟ .

قال تعالى : **{ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَـهُ سُـجَّدًا وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَـايَ مِنْ قَبْـلُ قَـدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا}** [5] . ما نوع السجود الذي سجده أبوي واخوة يوسـف، هل هو سجود عبادة ؟

والجــواب: لا . فــإن الأنبيــاء أبعد ما يكونــون عن الشــرك. ولكن الســـجود كـــان تحية الملـــوك والعظمـــاء في زمن يوسف عليه السلام ، فهو سجود تحية لا سجود عبادة .

ح-الأنبياء والرسل كلهم رجال .

ذهب بعض أهل العلم إلى أن مــريم بنت عمــران نبيــة، لأن الله أوحى إليها، ولما أظهر الله على يديها من خــوارق العـادات حيث ولـدت عيسى عليه السـلام من دون أب . ولكن الأدلة متضـافرة على أن الله لم يبعث رسلاً أو أنبياء من جنس النساء .

قال **ابن كثـير** : (وقوله **{ وأمه صـدّيقة }** [6] : أي مؤمنة به مصدقة له، وهذا أعلى مقاماتهـا، فـدل على أنها ليست بنبية كما زعمه ابن حـزم وغـيره ممن ذهب إلى نبـوة سـارة أم إسـحاق، ونبــوة أم موســى، ونبــوة أم عيسى ، اســتدلالاً منهم بخطــاب الملائكة لسـارة ومـريم، وبقوله **{وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه}** وهذا معنى النبوة ، والـذي عليه الجمهـور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال، قال الله تعالى : **{وما أرسـلنا قبلك**

---

1 .يوسف (24).

2 . قصص الأنبياء لابن كثير (ص251)

3 . الجامع لأحكام القرآن للقرطبي . المجلد الخامس (9/111)

4 . الجامع لأحكام القرآن . المجلد الخامس (9/110)

5 . يوسف (100)

6 . في قوله تعالى : { ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة .. الآية } المائدة (75)

إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى } وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري رحمه الله الإجماع على ذلك) [7] .

[7] . تفسير القرآن العظيم (2/87)، وانظر تفسير السعدي (2/326)

القسم الثاني : الفوائد واللطائف من قصص الأنبياء

نعرض في هذا القسم لبعض الفوائد اللطيفة، والنكت البديعة التي جاءت في سياق القصص القرآني، وسوف نتجوز في سرد تلك الفوائد إلا ما اقتضى المقام بسطه .

1- الإخلاص والالتجاء إلى الله سبب في حصول الهداية والنجاة .

الإخلاص والالتجاء إلى الله على الدوام والرجوع إليه في كل أمر هو السبب الأعظم في حصول الهداية إلى الصراط المستقيم علماً وعملاً ، قال الله تعالى عن الخليل عليه السلام { وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين }، [1] . وفي قوله تعالى في سياق قصة يوسف عليه السلام : {**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**} [2] . قال ابن سعدي في فوائده حول سورة يوسف : (ومنها: أن من دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصاً لله، في جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه، من أنواع السوء والفحشاء واسباب المعاصي ، ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله ((**وهم بها لولا أن رآى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين**)) على قراءة من قرأها بكسر اللام . ومن قرأها بالفتح، فإنه من إخلاص الله إياه ، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه . فلما أخلص عمله لله، أخلصه الله ، وخلصه من السوء والفحشاء) [3] .

قلت : وقد امتدح الله عباده المخلصين في آيات عديدة، مما يدل على أن صاحب هذه المرتبة محبوب ومقرب عند الله، وفي حفظ الله وعنايته .

2-من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه .

قال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام : **{فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا}** [4] **.** وقبل ذلك حاج قومه ودعاهم بشتى الطرق إلى التوحيد، وخاطب أباه آزر وألان له في القول، ولكن لا تنفع

---

[1] . المواهب الربانية من الآيات القرآنية ص 95 لابن سعدي . ط . دار رمادي للنشر 14017هـ
[2] . يوسف (24)
[3] . تفسير ابن سعدي (4/72)
[4] . مريم (49)

المواعظ مع قوم حكم الله عليهم بالشقاء، فقـال آزر لإبـراهيم : **{قَـالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَـهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُـرْنِي مَلِيًّا(46)}ـ** [1] . ولما رأى إبـراهيم إعراضـهم عن التوحيـد، وإيثـارهم للأصـنام والأحجـار على العزيز الجبار ترك ما هم عليه وقال : **{وَأَعْتَـزِلُكُمْ وَمَا تَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَـقِيًّا(48)}ـ** [2] .

وهذه وظيفة من أيس ممن دعاهم ، فـأتبعوا أهـوائهم، فلم تنجع فيهم المواعظ، فأصـروا في طغيـانهم يعمهـون . فمن وقع في هذه الحـال فعليه أن يشـتغل بإصـلاح نفسه ، ويرجو القبـول من ربه، ويعتزل الشر وأهله .

ولما كان مفارقة الإنسان لوطنه ومألفه وأهله وقومـه، من أشق شـيء على النفس،لأمـور كثـيرة معروفـة، ومنها انفـراده عمن يتعزز بهم ويتكثر، وكان من ترك شيئاً لله عوضه الله خـيراً منـه، واعـتزل إبـراهيم قومـه، قـال الله في حقه : **{فَلَمَّا اعْتَـزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَـهُ إِسْـحَاقَ وَيَعْقُـوبَ وَكُلًّا[من إسحاق ويعقوب] جَعَلْنَا نَبِيًّا}ـ** [3] .. [4] .

3-إزالة الباطل بالكلية حتى يُقطع كل تعلق به .

يؤخذ ذلك من قوله تعـالى حكاية عن موسى عليه السـلام : {**قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَـكَ فِي الْحَيَـاةِ أَنْ تَقُـولَ لَا مِسَـاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَـهُ وَانْظُـرْ إِلَى إِلَهِـكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِـفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْـفًا(97)}ـ** [5] . فموسى عليه السـلام حـرّق العجل الـذي عكف عليه بنو إسرائيل وعبـدوه من دون الله ، ثم نسـفه في اليم، ولم يسـتفد بشيء منه مع أنه كان من الذهب، وكـان بالإمكـان تغيـير صـورة العجل والاسـتفادة من الـذهب؛ ولكن أراد موسى عليه السـلام قطع كل تعلق بالأصـنام والأوثـان الـتي تعبد من دون اللـه، حـتى تخلص القلوب لربها وإلهها ولا يكون فيها شائبة من شرك . ونبينا على أفضل الصـلاة وأتم التسـليم، لما فتح مكة أزال وكسر كل الأصـنام والأوثـان الـتي تعبد من دون اللـه، وأمر بعض أصـحابه بإزالة الطواغيت التي كانت تعبد في الجزيرة كالعزى وغيرها.

---

1 . مريم .
2 . مريم.
3 . مريم (49)
4 . ابن سعدي (5/114)
5 . طه .

يقــول ابن ســعدي : (فــأراد موسى عليه الســلام، إتلافه [أي: العجل] وهم ينظـرون، على وجه لا تمكن إعادتـه- بـالحراق والسحق ذَرْيِهِ في اليم ، ونسفه، ليزول ما في قلوبهم من حبه، كما زال شخصه . ولأن في بقائه ، محنة لأن في النفـوس أقـوى داع إلى الباطل . فلما تـبين لهم بطلانه ، أخـبرهم بمن يسـتحق العبادة وحده لا شـريك له ، فقـال : **{إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا}** [1] .

4- مقام الرسالة والنبوة لا يمنع من الابتلاء .

الرسل والأنبيــاء هم أقــرب النــاس إلى اللــه، وأعظمهم منزلة عنـــده؛ ولكن تلك المنزلة لا تمنع من ابتلاء الله لهم واختبـــاره إياهم؛ بل هم أشد الناس بلاءً كما أخـبر بـذلك رسـول الله صـلى الله عليه وسلم، فعن سـعد بن أبي وقـاص قـال قلت: يا رسـول الله : أي النـــاس أشد بلاء ؟ قـــال : **(الأنبيـــاء ثم الأمثل فالأمثل ... الحديث)** [2] .

فإبراهيم الخليل عليه السلام أُمر بذبح ابنه، فانقاد لأمر ربه، ولما رأى الله عــزم إبــراهيم على الأمــر، رفع الله عنه هــذا الابتلاء العظيم **{وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَـاإِبْرَاهِيمُ(104)قَـدْ صَـدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَـذَلِكَ نَجْـزِي الْمُحْسِـنِينَ(105)إِنَّ هَـذَا لَهُـوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ(106)وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ}** [3] .

ومحمد صـلى الله عليه وسـلم أبتلي في نفسه وفي أهلـه، ففي أحد شُج وجهه وكسرت رباعيته، وابتلي في زوجه عائشـة-شـهراً كاملاً - لما رماها أهل الإفك بما بـرأه الله منـه، ولقي في دعوته من قومه أشد الإيذاء؛ ولكنه صبر في ذات الله .

وموسى وزكريا وأيـــوب ويوسف عليهم الســـلام وغـــيرهم من الأنبيـاء والرسـل، ابتلـوا وصـبروا واسـتحقوا الإكـرام من ربهم . وهذا الابتلاء مما يرفع الله به درجات رسله وأنبيائه، ويقربهم عند مولاهم زلفى.

5- إذا خالط بشاشة الإيمان القلـوب، هـان عند النفس كل عظيم في ذات الله .

وذلك أن السـحرة من قـوم فرعـون أتـوا بسـحرٍ لا يعلم عظمه إلا الله، ووصفه الله بوصف مطـابق لحقيقته فقـال تعـالى : **{قَالَ أَلْقُـوا فَلَمَّا أَلْقَـوْا سَـحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْـتَرْهَبُوهُمْ**

---

[1] . طه (98)

[2] . رواه الترمذي (2398) وقال : حديث حسن صحيح . ورواه أحمد وابن ماجة والدارمي .

[3] . الصافات : (104-107)

وَجَـاءُوا بِسِـحْرٍ عَظِيمٍ} [1] . ولما أمر الله موسى بـأن يلقي عصاه وقضت على إفك السحرة، أيقن السحرة هنالك أن ما جاء به موسى ليس سحراً إنما هو آية من آيات الله تدل على صـدقه وصدق رسالته، فآمنوا حينئذٍ بدون مشـاورة أو تـردد، فما عـاينوه من الآيات كافٍ في صدق دعوة موسى .

واغتاظ فرعون وتهددهم بقطع أيديهم وأرجلهم وأن يصلبهم على جذوع النخل، فلم يأبهوا لقوله وردوا عليه أن قالوا : {**قَـالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ(125)وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَـبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْـلِمِينَ**} [2] . وقـالوا: {**قَالُوا لَنْ نُـؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَـاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَـاقْضِ مَا أَنْتَ قَـاضٍ إِنَّمَا تَقْضِـي هَـذِهِ الْحَيَـاةَ الـدُّنْيَا(72)إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِـرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّـحْرِ وَاللَّهُ خَيْـرٌ وَأَبْقَى**} [3]. وقـالوا : {**قَـالُوا لَا ضَـيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُـونَ(50)إِنَّا نَطْمَـعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ**} [4] .

فلم ينفع تهديد فرعـون لما تمكن الإيمـان في قلـوبهم، وآثـروا الموت في ذات الله ، على الحياة في طاعة فرعون . -فسـبحان الله- كيف أنهم في أول النهـار أعظم النـاس كفـراً ، وفي آخـره أطـوع النـاس لـربهم وأشـدهم طلبـاً لمرضـاته . إنه الإيمـان إذا خالطت بشاشته القلوب .

6-محاورة موسى لفرعون .

لما عـرض موسى –عليه السـلام- دعوته على فرعـون، أظهر له من الآيات الكونية وغيرها التي تدل على أن الله الخـالق الـرازق المحـيي المميت، هو المسـتحق للعبـادة ، فلنسـتمع إلى تلك المحاورة : { **قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ(23)قَالَ رَبُّ السَّـمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُـوقِنِينَ(24)قَـالَ لِمَنْ حَوْلَـهُ أَلَا تَسْـتَمِعُونَ(25)قَـالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ(26)قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ(27)قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْـرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ(28)}** [5] .

---

[1] . الأعراف (116)
[2] . الأعراف (125-126)
[3] . طه (72-73)
[4] . الشعراء (50-51)
[5] . الشعراء .

فــــبين لهم موسى عليه الســـــلام الأدلة على وجــــود الله وأن المســتحق للعبــادة هو الــذي خلق الســموات والأرض ، الــذي خلقهم وخلق آبائهم، وهو رب المشرق والمغرب .
ولما أعيت فرعون الحيل، وأعجزهم موسى، وسُقط في أيديهم، لجأ الظالم فرعون إلى أسلوب التهديد والوعيد :
{قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ(29)} [1] .
ولما رأى موسى أن فرعون وقومه حُجبوا عن الاهتـداء إلى ربهم بما أظهره الله في الآفاق وفي أنفسهم من الآيـات الـتي يهتـدي بها ذو سليم الفطرة إلى ربه؛- ولكنه الكبر والاستعلاء صدهم عن اتباع الحق-، أراد أن يظهر لفرعون وقومه من الآيـات البـاهرة التي لا يأتي بها إلا الرسل :
{قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ(30) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(31)فَأَلْقَى عَصَاهُ فَـإِذَا هِيَ ثُعْبَـانٌ مُبِينٌ(32)وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ(33)} [2] .
فقال فرعون-عناداً واستكباراً- :
{قَـالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَـهُ إِنَّ هَـذَا لَسَـاحِرٌ عَلِيمٌ(34)يُرِيـدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ(35) } [3] .
فانظر –رعاك الله – إلى طريقة موسى-عليه الســلام- ومحاورته لفرعــون في إثبــات وجــود الله واســتحقاقه للعبــادة، ثم ترتيبه للآيات فبدأ بالكونية أولاً ثم لما لم يفد ذلك معهم لجأ إلى الآيـات المعجزة التي لا تعارض أبداً .

7- عمل الفاحشة و السـيئات والاسـتمرار عليها يـؤدي إلى فقدان العقل للتمييز بين الحق والباطل .
وهذا جليٌ في قصة قوم لوط، فإنهم كـانوا قد أدمنـوا الفاحشـة، وإتيان الذكور دون الإناث، فخالفوا الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولما كانت تلك حالهم، وهذا دأبهم، ابتلـوا بفقـدان التميـيز بين الحق والباطـل، فلم يقيمـوا وزنـاً لـدعوة نـبيهم لـوط-عليه الســلام- ولم يرتــدعوا عما هم عليه من فعل القبــائح ومخالفة الفطـرة السـوية؛ بل لم تكن لهم قلـوب يفقهـون بها أو عقـول ترشــدهم إلى ما فيه صــلاحهم وتقــواهم، لما اعتــادوا الفاحشة وكانت دأبهم وديدنهم .

[1] . الشعراء.
[2] . الشعراء .
[3] . الشعراء .

يقول تعالى مخبراً وواصفاً حالهم : { **وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ(77)وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ(78)قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ(79)قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ(80)** } [1] .

فانظر إلى وصف الله لمجيئهم للوط عليه السلام بعد أن علموا أن عنده أضياف حسان الوجه: { **وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ** } أي جاءوا مسرعين يريدون فعل الفاحشة بأضياف لوط عليه السلام. قال ابن عباس وقتادة والسدي : يهرعون : يهرولون . [وقال] الضحاك: يسعون، [وقال] ابن عيينة: كأنهم يدفعون . اهـ [2] . وإسراعهم دليلٌ على شدة تعلقهم بالفاحشة، وسفه عقولهم . وقوله تعالى : { **وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ** } أي كان من عادتهم إتيان الرجال دون النساء، فسبب لهم مداومتهم على فعل الفاحشة أن لم يصبروا حتى جاءوا مهرولين مسارعين .

وقال تعالى : { **وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ(67)قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ(68)وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ(69)قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ(70)قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ(71)لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(72)** } [3] .

والشاهد هنا قوله تعالى : { **لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ** } : وهذه السكرة، سكرة محبة الفاحشة، التي لا يبالون معها بعذل ولا لوم [4] .

8- حال الداعي مع المدعو .

أ- اللين في الخطاب الدعوي .

ونلمح ذلك في أمر الله لموسى وهارون أن يُلينا في القول لفرعون : **{فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}** [5] . ففرعون مع جبروته وعلوه وظلمه، إلا أن اللين في الدعوة قد يزيل قسوة القلب . وثمة موقف آخر، وهو موقف إبراهيم –عليه

---

1 . هود .
2 . الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (المجلد الخامس) (9/ 51)
3 . الحجر .
4 . تفسير ابن سعدي (4/173)
5 . طه (44)

السـلام- من أبيه (آزر) الـذي آثر الشـرك والتنديد على التوحيـد، ومع ذلك نرى خطاب إبـراهيم عليه السـلام لأبيه من ألين القـول وأرقه : **{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا(41)إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا(42)يَاأَبَتِ إِنِّي قَـدْ جَـاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا(43)يَـاأَبَتِ لَا تَعْبُـدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَـانَ لِلـرَّحْمَنِ عَصِـيًّا(44)يَـاأَبَتِ إِنِّي أَخَــافُ أَنْ يَمَسَّــكَ عَــذَابٌ مِنَ الــرَّحْمَنِ فَتَكُــونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا(45)}**[1] .

وكذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كـانت يـدعو قومه ويلين لهم الكلام والخطاب، ويجادلهم بالتي هي أحسـن، حـتى يـرغبهم في دين الله .

ب-الاستمرار في الدعوة وعدم اليأس .

وهذا حـال الـداعي المسـلم المتأسي بأنبيـاء الله ورسـله، فإنه يسـتمر على دعـوة النـاس والصـبر على أذاهم، وتحمل المشـاق في ذات الله، كما كـانت الأنبيـاء والرسل تفعل ، ولنا في رسـول الله صلى الله عليه وسلم سلف -بأبي هو وأمي -وخير سلف .

ولنسـتمع إلى عائشة رضي الله عنها وهي تسـوق ما أخبرها به النـبي صـلى الله عليه وسـلم عن إيـذاء قومه له وصـبره عليهم وعدم يأسه منهم : **(قالت للنـبي صـلى الله عليه وسـلم هل أتى عليك يـوم كـان أشد من يـوم أحد قـال لقد لقيت من قومك ما لقيت وكـان أشد ما لقيت منهم يـوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبـني إلى ما أردت فـانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعـالب فـرفعت رأسي فـإذا أنا بسـحابة قد أظلتـني فنظـرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال إن الله قد سـمع قـول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبـال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قـال يا محمد فقـال ذلك فيما شـئت إن شـئت أن أطبق عليهم الأخشـبين فقـال النـبي صـلى الله عليه وسلم بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا)** [2] .

ت- إذا اسـتبان للـداعي حـال المـدعو من الصـدود والإعراض فلا أسف ولا حزن عليه .

---

[1] . مريم .

[2] . رواه البخاري واللفظ له (3231 ـ) ومسلم (1795)

فالدعاة إلى الله، يدعون الخلق امتثالاً لأمر ربهم، وشفقة عليهم من أن تزل بهم الأقدام فيخسرون الدنيا والآخرة . والداعي إن استفرغ وسعه، نصحاً ووعظاً وتذكيراً بالله، ثم أصر المدعو على غيه وبطره، وأعرض عن الحق ، فلا ينبغي حينئذ للداعي أن يأسف أو يأخذه الحزن كل مأخذ؛ لأن الحزن يفوت على الداعي أموراً كثيرة؛ بل قد يترك هذا الطريق لما يراه من إعراض المدعوين .

ونوح عليه السلام استمر يدعو قومه طويلاً ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً فقال : **{ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا(5)فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا(6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا(7)ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا(8)ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا(9) }** [1] **.** ولكنهم أصروا على عنادهم واستكبارهم، ولما رأى نوح عليه السلام من قومه الصدود والعناد والاستكبار، بعد أن مكث يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، دعا عليهم ولم يبال بهم ولم يأسف عليهم : **{ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا(26)إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا(27) }** [2] . فاستجاب الله دعائه وأغرق المكذبين من قوم نوح .

وفي قوله تعالى : {**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى ءَاثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**} [3] . وقوله : {**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**} [4] .

يقول ابن سعدي : ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم، حريصاً على هداية الخلق، ساعياً في ذلك أعظم السعي، فكان صلى الله عليه وسلم ، يفرح ويسر بهداية المهتدين، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين، شفقة منه صلى الله عليه وسلم، عليهم ورحمة بهم، أرشده الله أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء، الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، كما قال في الأخرى . {**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**}[5] . وقال : { **فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ** } وهنا قال

---

[1] . نوح (4-9)
[2] . نوح .
[3] . الكهف (6)
[4] . فاطر(8)
[5] . الشعراء (3)

{ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ** } أي : مهلكها، غماً وأسفاً عليهم، وذلك أن أجرك قد وجب على الله .
وهؤلاء لو علم الله فيهم خيراً ، لهداهم . ولكنه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار، فلذلك خذلهم ، فلم يهتدوا، فإشغالك نفسك غماً وأسفاً عليهم، ليس فيه فائدة لك ، وفي هذه الآية[1] ونحوها عبرة :
فإن المأمور بدعاء الخلق إلى الله، عليه التبليغ، والسعي بكل سبب يوصل إلى الهداية، وسد طرق الضلال والغواية بغاية ما يمكنه ، مع التوكل على الله في ذلك، فإن اهتدوا فبها ونعمت، وإلا فلا يحزن ولا يأسف . فإن ذلك مُضعف للنفس، هادم للقوى ، ليس فيه فائدة، بل يمضي على فعله، الذي كُلف به وتوجه إليه . وما عدا ذلك فهو خارج عن قدرته . اهـ [2].

9- الإيمان بموعود الله، وأن الله ناصر رسله وعباده الصالحين .
فإن الداعي الموحد المتقي المخلص لربه وإن ضاقت عليه السبل، وصدت في وجهه الأبواب، ورمته الناس عن قوس واحدة، فمهما بلغت به الحال فإن الله ناصره ومؤيده والعاقبة له . {**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**} [3] ، {**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**} [4] . وموسى عليه السلام لما خرج ببني إسرائيل من مصر، و اتبعهم فرعون، ورأى بنو إسرائيل جيش فرعون خافوا على أنفسهم وقالوا : { **إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)** } [5] قال موسى واثقا بموعود ربه وأنه الله لا يخزي رسله أبداً { **كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ(62)** }. ففرج الله عن رسوله هذه الشدة ونجى نبيه ومن معه من المؤمنين وأهلك فرعون وقومه الظالمين {**فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ(63)وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ(64)وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ(65)ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ**} [6] .

---
[1] . الآية السادسة من سورة الكهف .
[2] . تفسير ابن سعدي (9-5/8)
[3] . غافر (51)
[4] . القصص (83)
[5] . الشعراء(61)
[6] . الشعراء (63-66)

10- الإنكـــار وإن كـــان قليلاً لا بد أن يعمل عمله في النفوس .

لا ينبغي للمسلم أن يـترك إنكـار المنكـرات، ولا يقلل من شـأن الكلمات القليلة، فإنها إن خـرجت من قلب مخلص ناصـح، يبتغي بــذلك رضى اللــه، عملت عملها في نفس المنكر عليه . ولا أدل على ذلك من إنكـار موسى عليه السـلام لجمـوع السـحرة الـتي جاءت بسحرها العظيم، لإطفاء نور اللــه، فقـال لهم موسى عليه السـلام : **{ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَـرُوا عَلَى اللَّهِ كَـذِبًا فَيُسْـحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى}** [1] . فأحدثت هذه الكلمة أثــراً في أنفس الســحرة، وعملت عملها فيهم، ووصف الله ســبحانه وتعـالى حـالهم بعد الإنكـار عليهم فقـال : **{فَتَنَازَعُوا أَمْـرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَــرُّوا النَّجْـوَى}** [2] . يقــول **ابن ســعدي** : وكلام الحق لا بد أن يؤثر في القلـوب، لاجـرم، ارتفع الخصـام والـنزاع بين السحرة، لما سمعوا كلام موسى ، وارتبكوا . ولعل من جملة نزاعهم، الاشتباه في موسى، هل هو على الحق أم لا ؟ .. اهـ [3]

11- الاســـــتفادة من كل فرصة تســـــنح للداعية في الدعوة إلى الله .

على الداعي إلى الله أن يوظف كل الإمكانات في سبيل الـدعوة إلى الله، وأن يستغل كل الفرص في الـدعوة إلى ربـه، ولا يحقر من ذلك شــيئاً، وفي قصة يوسف عليه الســلام مع صـــاحبي الســجن أبلغ الأثر في اسـتفادة الداعية من كل الفــرص . قــال تعالى حاكياً قصة يوسف في السجن : **{وَدَخَلَ مَعَـهُ السِّـجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَـالَ الْآخَـرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِــهِ إِنَّا نَــرَاكَ مِنَ الْمُحْسِــنِينَ(36)قَــالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِـهِ قَبْـلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَـرَكْتُ مِلَّةَ قَـوْمٍ لَا يُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِــالْآخِرَةِ هُمْ كَــافِرُونَ (37)وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَــائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُـوبَ مَا كَـانَ لَنَا أَنْ نُشْـرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِـكَ مِنْ فَضْـلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْـكُرُونَ(38)يَاصَـاحِبَيِ السِّـجْنِ ءَأَرْبَـابٌ مُتَفَرِّقُـونَ خَيْـرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِـدُ الْقَهَّارُ(39) مَا تَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَـمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَـاؤُكُمْ مَا أَنْـزَلَ**

---

[1] . طه (61)
[2] . طه (62)
[3] . تفسير ابن سعدي (5/168)

اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَـرَ أَلَّا تَعْبُـدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [1] .
فـــانظر إلى يوسف عليه الســـلام لما ســـأله الفتيـــان عن تأويل رؤياهمـــا، أجابهما أولاً بما هو أنفع لهما وهو الـــدعوة إلى توحيد الله ونبذ الشـــرك، وعبـــادة الله وحـــده، ثم لما بين التوحيد لهما ودعاهما إلى عبادة الله وحـده ، قص عليهما تأويل الرؤيا . وهـذه فائدة يستفيد منها المفتون والمعلمون والدعاة إلى الله .
قال **ابن سعدي** : ومن فطنته عليه الســلام ، أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوتــه، حيث ظنا فيه الظن الحسن وقــالا : **{إنا نــراك من المحســـنين }** وأتيـــاه لأن يعـــبر لهما رؤياهما ، فرآهما ، متشوقين لتعبيرها عنـده ـ رأى ذلك فرصـة، فانتهزهـا، فـدعاهما إلى الله تعـالى ، قبل أن يعـبر رؤياهما ليكـون أنجح لمقصـوده، وأقرب لحصول مطلوبه أ هـ [2] .

12-القوة والأمانة .

القــوة والأمانة صــفتان تطلبــان في أصــحاب الرياسة والقيــادة، والتكليف بالأعمال، وذلك أن العامل القـوي في أي منصب كـان إن لم يكن أميناً ظلم العباد، واغتصب الحقـوق، وخـان الأمانـات، وكذلك العامل الأمين إن لم يكن قوياً، أُتي من قبل ضعفه وعـدم قدرته على إدارة الأمـور وتسـييرها على الوجه المطلـوب . فكلا الصفتين مطلب لضمان نجاح الأعمال .
ويــدل على ذلك آيــتين في كتــاب الله : الأولى قوله تعــالى في حكايته قــول ابنة شـعيب لما أراد أبوها من موسى عليه الســلام أن يعمل عنده .
{ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْـرَ مَنِ اسْـتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ } [3] **.**
والثانية قوله تعــــالى في حكايته عن كلام عفـــــريت من الجن لسليمان عليه السلام ، لما قال لحاشيته من يأتني بعرش بلقيس قبل أن تقدم إليه ؟ :
{ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُـومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ } [4] **.**
وعليه فإن المرء عندما يبحث عن رجال لتسلم وظائف معينة، أو لأداء مهـام، أو أعمـال، فإنه يـراعي تلك الصـفتين، حـتى يحصل على نتائج مرضية .

---

[1] . يوسف (36-40)
[2] . تفسير ابن سعدي (4/75)
[3] . القصص (26)
[4] . النمل (39)

13-إني حفيظ عليم .

تلك كانت مقالة يوسف عليه السلام في سياق ذكر قصته التي قصها الله علينا في كتابه، ويوسف عليه السلام قال تلك المقالة بعد أن عبّر الرؤيا لعزيز مصر، وأظهر الله صدق يوسف وبراءته من التهمة التي أدخل بسببها السجن، فأراد ملك مصر أن يجعله مقرب عنده ممكن أي كالمستشار **{ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ}** [1] . ولكن يوسف عليه السلام أراد أمراً آخر فيه مصلحة عامة للخلق فقال : **{ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ }** [2] . وليس هذا من باب سؤال الإمارة المنهي عنها، والتي جاءت في حديث عبد الرحمن بن سمرة عند مسلم ، أن رسول الهل صلى الله عليه وسلم قال له : **(يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها من مسألة وُكِلت إليها ،وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها)** .

وليس هذا أيضاً من باب تزكية النفس ؛ بل هذا من باب النفع العام للخلق، ومعرفته -عليه السلام- من نفسه الكفاية والأمانة والحفظ والإصلاح [3].

ويستفاد من هذه الآية، أن المسلم لا يحرص على طلب الإمارة، أو تسنم المناصب القيادية ونحو ذلك، إلا أن يجد من نفسه قدرة وكفاية وأمانة، و لا يكون هناك من يقوم بالواجب غيره، فعندئذ ليطلبها وليسأل الله العون، وليحذر من التأويلات المسوغة له الإقدام على طلب المناصب، فإنه إن سألها وُكِل إليها، كما جاء في الحديث .

14- فائدة جليلة من قوله تعالى : (إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) .

الإنسان تطمح نفسه لنيل مراتب، أو تحصيل علم، أوتحصيل منفعه دينية أو دنيوية. ولكن ليس كل ما تمناه المرء مدركه، ولله في منع الناس من نيل بعض مبتغاهم حكم، فلله الأمر من قبل ومن بعد . ولا ينبغي الحزن على ما لم يتحقق من الأماني، بل تُسلى النفس بما أنعم الله عليها من النعم الدينية والدنيوية فذلك أدعى لسكون النفس وراحتها . وفي هذا المقام نسوق كلاماً نفيساً للشيخ **عبد الرحمن بن سعدي** -رحمه الله –

---

1 . يوسف (54)
2 . يوسف (55)
3 . انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (9/141-142) وتفسير ابن سعدي (4/39)

فقــال : ينبغي لمن طمحت نفسه لما لا قــدرة له عليــه، أو غــير ممكن في حقه ، وحزنت لعـدم حصـوله أن يسـليها بما أنعم الله به عليها مما حصل له من الخـير الإلهي الـذي لم يحصل لغـيره؛ ولهذا لما طمحت نفس موسى عليه السلام إلى رؤية الله تعـالى وطلب ذلك من اللـــه، فأعلمه الله أن ذلك غـــير حاصل له في الـدنيا وغـير ممكن ، سـلاّه بما أتـاه فقـال **{ يَامُوسَـى إِنِّي اصْـطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَـالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُـذْ مَا ءَاتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ }** [1]**. أهـ** [2] **.**

15- الرؤيا من العلوم الشـرعية الـتي لا يفـتى فيها إلا بعلم .

قـال **بن سـعدي** -رحمه اللـه- : أن علم التعبـير من العلـوم الشـرعية ، وأنه يثـاب الإنسـان على تعلمه وتعليمـه، وأن تعبـير الرؤيا ، داخل في الفتـــوى، لقوله [أي يوسف عليه الســـلام] للفتيين : **{ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان }** وقال الملك : **{ أفتـوني في رؤيـاي }** . وقـال الفـتى ليوسف : **{ أفتنا في سبع بقرات }** الآية . فلا يجـوز الإقـدام على تعبـير الرؤيا من غير علم . أهـ [3] .

قلت : وفي هــذا الــزمن، كــثر المعــبرون، وتناقل النــاس رؤى عجيبة، وإخبارٌ عن وقائع ستحدث في تواريخ محدده،وهو بابٌ من أبــواب الكهانة لا تعبـير الرؤيا ! . وتهــافت النــاس على تعبــير رؤاهم، وأكثرها أضــغاث أحلام. وكــان يكفي أحــدهم إن رأى ما يســره أخـبر بها من يحب، وإن رأى سـوءً تعـوذ بالله من شـرها وتفل عن يسـاره ثلاثـاً، وهي لا تضـره بعد ذلك كما أخـبر النـبي صلى الله عليه وسلم بقوله : **(الرؤيا الحسنة من الله فـإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحــدث به إلا من يحب وإذا رأى ما يكـره فليتعـوذ بالله من شـرها ومن شر الشـيطان وليتفل ثلاثا ولا يحدث بها أحدا فإنها لن تضره)** [4] .

16- دفع الإنسان التهمة عن نفسه طريقة شرعية .

لا يخلو المرء أن يتعرض لبعض المواقف والتي قد تثير الريبة فيه عند الآخرين، وسواء كان هذا الموقف شكاً وريبة، أو أمـراً شـاع عند النـاس وتنـاقلوه كـالخبر المصـدق؛ وأيهما كـان فـإن المـرء مطـالب بـدفع التهمة عن نفسه بكل ما يسـتطيع وبكل وسـيلة،

---

[1] . الأعراف (144)
[2] . المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص 40)
[3] . تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (4/77)
[4] . رواه البخاري (7044) واللفظ له، ومسلم (2261)

ويظهر هـــذا في قصة يوسف عليه الســـلام، فإنه قد حُبس في السجن ومكث فيه مدة طويلة ظلماً، ولما عبّر رؤيا الملـك، وأمر الملك بإطلاق سراحه وجـاءه البشـير، أبي الخـروج إلا بعد ثبـوت براءتـــه، وهو من بـــاب دفع التهمة عن النفس . قـــال تعـــالى : **{ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْـوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْـدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْـــدِهِنَّ عَلِيمٌ(50)قَـــالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُــفَ عَنْ نَفْسِـــهِ قُلْنَ حَـاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْـــهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَـقُّ أَنَا رَاوَدْتُــهُ عَنْ نَفْسِـــهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّـــادِقِينَ}** [1] . وفي موقف يوسف هــذا ظهــور فضــيلة ومنقبة له –عليه الســلام- حيث أن لبثه في السجن تلك المدة الطويلة، لم تدفعه للخروج من السـجن، حـتى تندفع التهمة عن نفسه .

وثمة موقف آخر لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فعن علي بن الحســين رضي الله عنهما أن صــفية زوج النــبي صــلى الله عليه وسلم أخبرته أنها جـاءت إلى رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم تـزوره في اعتكافه في المسـجد في العشر الأواخر من رمضـان فتحدثت عنده ساعة ثم قامت تنقلب فقام النبي صــلى الله عليه وسلم معها يقلبها حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم ســلمة مر رجلان من الأنصــار فسـلما على رســول الله صــلى الله عليه وسلم فقال لهما النبي صـلى الله عليه وسـلم على رسـلكما إنما هي صفية بنت حيي فقالا سبحان الله يا رسول الله وكـبر عليهما فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن الشـيطان يبلغ من الإنسـان مبلغ الدم وإني خشيت أن يقـذف في قلوبكما شـيئا [2] . فقوله صلى الله عليه وسلم : **(على رسلكما إنما هي صــفية بنت حــيي)** هو من بـاب دفع التهمة عن النفس . ومهما كـان المـرء واثقاً من نفسه فإن الطريق الشرعية هي التي سلكها أنبياء الله من قبل محمد ويوسف عليهما الصلاة والسلام .

17- التأني والتثبت قبل الإقدام يقي من الندامة .

ومن أظهر المواقف في هذا قصة نـبي الله سـليمان مع الهدهـد، فـــإن الهدهد لما أخـــبره بشـــرك بلقيس وقومهـــا، وســـجودهم للشمس وعبادتهم لها من دون الله، تأنى سـليمان عليه السـلام، ولم يعـــاجلهم بغـــزو أو نحو ذلك بل قـــال : **{قَـــالَ سَـــنَنْظُرُ**

[1] . يوسف (50-51)

[2] . روه البخاري واللفظ له (2035) ومسلم (2175)

أَصَــدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَــاذِبِينَ} [3] . ثم أرسل مع الهدهد رسالة يدعوهم إلى الإيمان بالله وعبادته وحده .
والله سبحانه أمر عبـاده بـالتثبت والتـبين إن جـاءهم فاسق بنبـأ، وأن لا يتعجلوا حتى يتيقنوا من صحة الخبر فقال تعالى :
{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَـإٍ فَتَبَيَّنُـوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَــادِمِينَ } [1] . وكم تعجل أناس في أمور فأعقبهم ذلك ندماً شديداً، وتمنـوا أن لو تثبتوا وتيقنوا .

18- المؤمِّن على الدعاء شريك للداعي .

ونستفيد هذا الحكم من دعاء موسى على فرعون وقومه، فقــال موسى :
{ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْــدُدْ عَلَى قُلُــوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُــوا حَتَّى يَــرَوُا الْعَــذَابَ الْأَلِيمَ} [2]. قـــال **الله تعـــالى** مخاطبـــاً موسى وهـــارون **: { قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَـانِّ سَـبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُـونَ }** [3] . فكـان الـدعاء من موسـى، وكـان استجاب الدعاء من موسى وهـارون، قـال العلمـاء: كـان موسى يدعو وكان هارون –عليهما السلام- يؤمن على دعائه، وهـذا دليل على أن المؤمن على الدعاء شريك للداعي .

19- ختم الدعاء بما يناسب حال الداعي.

من آداب الدعاء، أن يسلك الداعي في سؤاله ربه سـبيل التـذلل والخضـــوع، وأن ينتقي الألفـــاظ المناســـبة الـــتي تناسب حاله وحاجتـه، فهو أدعى لقبـول دعائـه، وإجابته سـؤله . وتلك كـانت طريقة الأنبيـاء والرسـل، فهـذا أيـوب عليه السـلام بعد أن مسه النصب والضر يـــدعو ربه برحمته أن يرفع عنه الضر والمـــرض: **{وَأَيُّوبَ إِذْ نَـــادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّـــنِيَ الضُّـــرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(83)}** [4] . وزكريا عليه السلام لما حُرم الولد تضرع إلى مـــولاه أن يرزقه الذريه ووصـــفه بأنه خـــير الـــوارثين **: {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَــادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَــذَرْنِي فَــرْدًا وَأَنْتَ خَيْــرُ الْــوَارِثِينَ}** [5] . وموسى عليه السـلام لما فر هاربـاً من مصر

[3] . النمل (27)
[1] .الحجرات (6)
[2] . يونس (88)
[3] . يونس (89)
[4] . الأنبياء .
[5] . الأنبياء (89)

متوجهاً إلى مدين، وكان لا يملك شيئاً، وكان من أمره ماكــان مع المــرأتين اللــتين ســقى لهما ثم : **{ تَـوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَـالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْـرٍ فَقِـيرٌ }** [1] . فســأل الله مبيناً حاله وأنه فقير إلى الخير الذي يأتيه من مولاه ! .

20- تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة .

لما كان من يونس – عليه الســلام- من أمــره ماكــان وابتلاه الله بأن يمكث في بطن الحوت ما شاء، ولما كان يونس مســبحاً لله ذاكــراً لله في وقت الرخــاء، هــون عليه أمــره في الشــده، ورفع عنه الابتلاء.

{ فَلَـوْلَا أَنَّهُ كَـانَ مِنَ الْمُسَـبِّحِينَ(143)لَلَبِثَ فِي بَطْنِـهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [2] . يقول **ابن كثير** على هــذه الآية : قيل لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء ... [3] . وقال **القرطــبي** : أخبر الله عز وجل أن يــونس كــان من المســبحين ، وأن تســبيحه كان سبب نجاته، ولذلك قيل: إن العمل الصــالح يرفع صــاحبه إذا عثر . أهـ [4] .

وفي هــذا يقــول النــبي صــلى الله عليه وســلم : **(احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف إليه في الرخــاء يعرفك في الشدة)** [5] .

وحــريٌ بنا الإتســاء بالأنبيــاء، فنضــرع إلى الله غــدوة وعشــية، ونتعرف إليه في الرخاء ليعرفنا في الشدة .

21- العاقبة الحميدة لمن اتقى وصبر .

وذلك أن من أتقى الله عز وجل بفعل أوامــره واجتنــاب نواهيــه، وصــبر على طاعة الله وعن معصــيته وعلى أقــدار الله المؤلمــة، فإن العاقبة الحميدة له، وكــان من المحســنين . وقد لقي يوسف عليه السلام من اخوته ما لقي فاتقى الله وصبر، وابتلي بالــدعوة إلى الفاحشة من امــرأة العزيز فــاتقى الله وصــبر، وحبس في السجن مدة طويلة فاتقى الله وصــبر، وابتلي بالملك فــاتقى الله وصــبر . ولهــذا لما عــرف نفسه لأخوته **{ قَــالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَـدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِـيعُ أَجْـرَ الْمُحْسِـنِينَ}** [6] .

---

[1] . القصص (24)
[2] . الصافات (143-144)
[3] . تفسير بن كثير سورة الصافات آية 143
[4] .تفسير القرطبي (سورة الصافات آية 143)
[5] . رواه أحمد (2800) والترمذي (2516)
[6] . سورة يوسف (90)

فكانت العاقبة الحميدة له، جزاء على إحسانه وتقواه وصبره – عليه السلام- .

22- كتمان بعض النعم خوف الحسد أو استعمال الأسباب الدافعة للمكاره .

فالمُنعم عليه إن كان يخشى من إظهار نعمة الله عليه الحسد أو الإصابة بالعين ونحوها من المكاره، جاز له كتمانها أو استعمال ما يقوى عليه من الأسباب المشروعة لدفعها .

فمن الأول : قوله تعالى : { إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ(4)قَالَ يَابُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ(5)} [1] **.** فيعقوب عليه السلام لما رأى كرامة الله ليوسف، من خلال الرؤيا، نهاه أن يقص على إخوته تلك النعمة التي اختصها الله به، لئلا يحسدونه عليها، أو يضمروا له شراً بسببها .

والثاني : قوله تعالى : **{ وَقَالَ يَابَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ(67)وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(68)}** [2] .

وهنا أمر يعقوب عليه السلام بنيه أن يدخلوا المدينة من أبواب متفرقه، ولا يدخلوا من باب واحد، لئلا يصابوا بالعين، وذلك لكثرتهم وحسن بهائهم ، فخشي يعقوب عليه السلام إن دخلوا من باب واحد أن يصابوا بالعين أو مكروه، وهذا من باب استعمال الأسباب الدافعه للعين ونحوها [3].

23- سر تكرير قصة موسى مع فرعون .

قال شيخ الإسلام بن تيمية : ثَنَّي قِصَّةَ مُوسَى مَعَ فِرْعَوْنَ ; لِأَنَّهُمَا فِي طَرَفَيْ نَقِيضٍ فِي الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فَإِنَّ فِرْعَوْنَ فِي غَايَةِ الْكُفْرِ وَالْبَاطِلِ حَيْثُ كَفَرَ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَبِالرِّسَالَةِ وَمُوسَى فِي غَايَةِ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ مِنْ جِهَةِ أَنَّ اللَّهَ كَلَّمَهُ تَكْلِيمًا لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وَاسِطَةً مِنْ خَلْقِهِ فَهُوَ مُثْبِتٌ لِكَمَالِ الرِّسَالَةِ وَكَمَالِ التَّكَلُّمِ وَمُثْبِتٌ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ بِمَا اسْتَحَقَّهُ مِنْ النُّعُوتِ وَهَذَا بِخِلَافِ أَكْثَرِ

---

[1] . سورة يوسف .
[2] . يوسف .
[3] . انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي (4/79)

الْأَنْبِيَاءِ مَعَ الْكُفَّارِ فَإِنَّ الْكُفَّارَ أَكْثَـرُهُمْ لَا يَجْحَـدُونَ وُجُـودَ اللَّهِ وَلَمْ يَكُنْ أَيْضًا لِلرُّسُلِ مِنْ التَّكْلِيمِ مَا لِمُوسَى ; فَصَارَتْ قِصَّةُ مُوسَـى وَفِرْعَـوْنَ أَعْظَمَ الْقِصَـصِ وَأَعْظَمُهَا اعْتِبَـارًا لِأَهْـلِ الْإِيمَـانِ وَلِأَهْـلِ الْكُفْرِ ; وَلِهَذَا كَـانَ النَّبِيُّ صـلى الله عليه وسـلم يَقُصُّ عَلَى أُمَّتِـهِ عَامَّةَ لَيْلِهِ عَنْ بَنِي إسْرَائِيلَ وَكَانَ يَتَأَسَّى بِمُوسَى فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ وَلَمَّا بُشِّرَ بِقَتْلِ أَبِي جَهْلٍ يَـوْمَ بَـدْرٍ قَـالَ هَـذَا فِرْعَـوْنُ هَـذِهِ الْأُمَّةِ وَكَانَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ مِنْ الصَّابِئَةِ الْمُشْـرِكِينَ الْكُفَّارِ ; وَلِهَـذَا كَـانَ يَعْبُـدُ آلِهَـةً مِنْ دُونِ اللَّهِ كَمَا أَخْبَـرَ اللَّهُ عَنْـهُ بِقَوْلِـهِ : **{ وَيَـذَرَكَ وَآلِهَتَكَ }** وَإِنْ كَانَ عَالِمًا بِمَا جَـاءَ بِـهِ مُوسَـى مُسْـتَيْقِنًا لَـهُ لَكِنَّهُ كَـانَ جَاحِــدًا مَثْبُــورًا كَمَا أَخْبَــرَ اللَّهُ بِــذَلِكَ فِي قَوْلِــهِ : **{ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ } { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا }** الْآيَةَ . وَقَالَ تَعَـالَى : **{ وَلَقَـدْ آتَيْنَا مُوسَـى تِسْـعَ آيَـاتٍ بَيِّنَـاتٍ }** إلَى قَوْلِـهِ : **{ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَـؤُلَاءِ إلَّا رَبُّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ }** الْآيَةَ [1].

تم الفراغ منه في العشرين من شهر شعبان لعام الف وأربع مائة وثلاث وعشرين بعد الهجرة النبوية المباركة ، والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وسلم تسليماً كثيراً ، والحمد لله رب العالمين .

[1] . الفتاوى (12/9)